
الرسالة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩ بالقاهرة
التليفون رقم ٤٢٩٩٢

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

تصدر كل اسبوعين مؤقتاً

بدل الاشتراك
ـــص
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد الثانى (القاهرة فى يوم الاربعاء ٦ شوال سنة ١٣٥١ — أول مايو سنة ١٩٣٣) السنة الأولى

رسالة الشباب

عن يسارك وأنت خارج من ميدان الأبرا الى عابدين باب عتيق ضخم، لا تجد بينه وبين جيرته انسجاما فى طراز، ولا التئاما فى ذوق، تدخله فكأنما تدخل داراً من دور الترك، أو ديرا من ديور الروم: دهليز قاتم رحب، وفناء كالح رطب، ودرج رخامي يصعد بك طبقتين الى جمعية القرش!

فى هذا الربع الموحش يعمل الشباب النضر! ومن هذا الطابق الرهيب ينبثق الروح الذى يهز القلوب، ويشغل الاذهان، ويملأ الصحف، ويحرك الايدى ويرصد الأعين لافتتاح (مصنع الطرابيش) عما قليل!

تدخل فتجد مقترح المشروع وكاتب سره وهو فتى لا تزال على محياه الأبلج قسمات اليفاعة! يجلس فى غرفة عارية من الأثاث، على مكتب مغطى بأشتات الورق ومن حوله رفاقه الأبرار يجيبون دعاءه، أو يناقشون آراءه، أو يطلبون امضاءه، والعواطف المشبوبة النبيلة تجيش فى هذه القلوب الغضة فتنفسها فى النهار الراحة وفى الليل النوم! جلست هنيهة فى هذه الغرفة الجرداء الوسيمة، أرى الاخلاص يتمثل فى الخيال، والأمل يتدفق فى الحديث، والشباب المرح اللاهى يحول الى كد دائب وصبر غالب ووقار مرهوب، ثم اسمع أخبار اللجان وعدات المهرجان وحركة المطبوعات وجمع التبرعات واصدار الطوابع الى مختلف الجهات، فقلت فى نفسى: يا لله! أقيادة جيش تقرر الخطط وتحفظ السلام وتعز الوطن، أم خلية نحل تدير الأمر وتجمع الرحيق وتصنع العسل؟!

***

لقد كان الشباب فى نهضتنا السياسية الروح الذى أحيا الشعور، والضوء الذى هدى الجمهور والدعوة التى دار عليها الرأى!

وهاهم أولاء فى نهضتنا الاقتصادية يرفون رفيف الأملاك حول بنك مصر وشركاته؛ ويضيفون الى هذا البناء الرفيع المحكم شرفات تزيده جمالا وروعة! يريدون — والشباب قادر اذا أراد — أن يتجمع من القرش الواحد رءوس أموال لمصانع شعبية. كما يتجمع البحر من قطرات المطر، والجبل من ذرات الرمل!!

فمن ذا الذى لا يساهم فى هذا المشروع الخطير بهذا القرش الحقير وفى كل لحظة تلفظ اليد أمثاله فى توافه الأشياء، وضئال الامور!

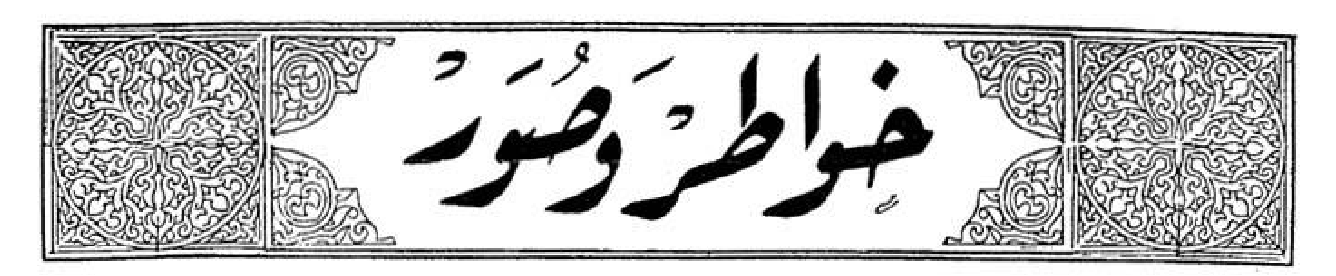
> يشترك فى تحرير المجلة:
> الدكتور طه حسين
> واعضاء من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ان نشئنا ليؤدون رسالة الشباب كما تؤدى الزهور رسالة الفردوس. ولقد رأيت اخوانهم فى فلسطين والشام والعراق ينتعشون بهذا العبير، ويسيرون على هدى هذا الشعاع.

فافسحوا فى المجال لعزم الصبى ينهض برأى الكهولة! فان الوطن لا ينهض الا بشبانه، وان الشجر لا يثمر الا بأغصانه،

أما الشيوخ فكالجذوع، هم الاصل والمدد والسند، ولكنهم ألصق بالارض وأميل الى السكون وأقرب الى الجمود؛ فلا تقوى على تحريكهم رياح الامل، ولا تغرد على حطبهم طيور السماء!

احمد حسن الزيات



« قروش » فكرية

مهداة الى « القروش » النقدية !

للاستاذ عباس محمود العقاد

الشعور السعيد

أسعد الشعور ما امتزج فيه شعور الانسان بنفسه وشعوره بغيره ، أو ما كان فيه الشعور بالغير ضربا من الشعور بالنفس . ومن هذا القبيل شعور الأب بابنه والحبيب بحبيبه والمشهور بشهرته : يرى نفسه في غيره ويرى غيره في نفسه ، فيلتقي فيه الرضى عن النفس والرضى عن الدنيا . وهما تمام الرضى الذي يحيل الألم والشقاء سروراً وسعادة

كراهة الاخيـــار

قد يكون الشرير الذي يشتد بغضه لأهل الخير من أقرب الاشرار الى الاخيار . لأنه يحس بما فقد ويحس بما امتاز به غيره فيحسدهم . والحسد اعجاب معكوس، أما الشرير الذي لا يبغض أهل الخير فادراكه للخير قليل ، وطلبه للامتياز والرجحان ضعيف

حرية الفـــكر

فرق بين من يجترئ على العقائد الراسخة لقوة في نفسه ، وبين من يرتاب فيها لتحلل في طبيعته يعجزه أن يمسك العقيدة القوية ويحتويها

اصابة الجـــاهل

الساعة المعطلة تكون أضبط الساعات جميعا في لحظة من اللحظات ، وكذلك العقل الصغير الخابي يصيب مرة حيث لا تصيب كبار العقول

أنانيـــة الشيوخ

دين المنفعة يغلب على الشيخوخة لأنها عهد الضعف والادبار ، لا لأنها عهد الخبرة والمعرفة

العظماء

حاجة الناس الى العظيم حاجتهم الى ارضاء غرورهم لا الى ارضاء غرور العظيم

الشعر والشيخوخة

اذا قال الشيخ لا حاجة بي الى الشعر فلا ترث للشعر بل ارث له هو لانه ينعى نفسه

واذا قالت الأمة لا حاجة بي الى الشعر فصدقها ، واعلم أنها قد شاخت، فلاحاجة بها الى الشعر، ولا الى غيره من علامات الفتوة والحياة

الخوف وحب الحياة

الخوف المفرط من الموت علامة الجهل بقيمة الحياة لا علامة المعرفة بتلك القيمة ، لان الذي يؤثر كل حياة على كل موت يقبل الحياة على أي شكل من الأشكال ، ويقبلها على أقبح الاشكال ، والذي يقبلها على أقبحها لا يعرف لها قيمة تصان

الزهد والمتعة

الزاهد الذي يروض نفسه على الزهد بتقبيح الدنيا ليس بزاهد ، لانه لا يترك الا مجا قبيحا حين يترك دنياه ، ولأشرف منه نفسا ذلك الذي ينعم بالدنيا لانها عنده نفاسة وجمال

تفاؤل القوة والضعف

يتفاءل المرء ثقة منه بالقدرة على مغالبة الخطوب ، أو قلة مبالاة بعواقب الهزيمة ، وهذا تفاؤل القوة

ويتفاءل المرء خداعا لنفسه كي لا يجشمها التأهب لملاقاة الخطوب والتفكير في عواقبها ، وهذا تفاؤل الضعف

الانتقاد والحرية

ليست كثرة الانتقاد دليلا على الحرية في كل حين

ان الناس يكثرون الانتقاد حين يجهلون الحرية ، لانهم لا يرون للآخرين حقا في التصرف كما يشاءون

الكبرياء

الكبرياء اعتداء ، أو رد اعتداء

الواقعيون والخياليون

التعويل على المحسوسات دأب جميع الناس ، لكن صاحب النفس الكبيرة يحس مالا يحسه أصحاب النفوس الصغار ، فيعده هؤلاء من الخياليين .. لأن محسوساته غير موجودة عندهم، فهي ضرب من الخيال.

صديق

للأستاذ أحمد أمين

— ١ —

الأستاذ بكلية الآداب

لي صديق ، اصطلحت عليه الاضداد ، وائتلفت فيه المتناقضات ، سواء في ذلك خلقه وخلقه وعلمه .

حيي خجول ، يغشي المجلس فيتعثر في مشيته ، ويضطرب في حركته ، ويصادف أول مقعد فيرمى نفسه فيه ، ويجلس وقد لف الحياء رأسه ، وغض الخجل طرفه ، وتقدم له القهوة فترتعش يده وترتجف أعصابه ، وقد يداري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ، ولا به اليها حاجة ، وقد يشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين ، وهي لا تحترق بهذا القدر كل حين ، وقد يهرب من هذا كله فيتحدث الى جليسه لينسى نفسه وخجله ، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاود الهرب ، وهكذا دواليك حتى يحين موعد الانصراف ، فيخرج كما دخل ، ويتنفس الصعداء حامدا الله على أنه لم يخر صعقا ، ولم يدركه حينه كربا وقلقا .

من أجل هذا أكره شيء عنده أن يشترك في عزاء أو هناء . أو يدعى الى وليمة أو يدعو اليها ، يشعر أنه عبء ثقيل على الناس وأنهم عبء عليه ، يحب العزلة لا كرها للناس ولكن سترا لنفسه ، وأنسا بالوحدة وهي تضنيه وتبريه .

ثم هو — مع هذا — جريء الى الوقاحة ، يخطب فلا يهاب ، ويتكلم في مسألة علمية فلا ينضب ماؤه ، ولا يندى جبينه ، ويعرض عليه الأمر في جمع حافل فيدلي برأيه في غير هيبة ولا وجل ، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم ، ويدمى شعورهم فلا يأبه لذلك ، ويرسل نفسه على سجيتها فلا يتحفظ ولا يتحرز .

يحكم من يراه في حالة الأولى أنه أحيا من مخدرة ، ومن يراه في الثانية أنه أوقح من ذئب وأصلب من صخر ، ومن يراه فيهما أنه شجاع القلب، جبان الوجه .

* * *

وهو طموح قنوع ، نابه خامل ، يرمي بهمته الى أبعد مرمى ، وتنزع نفسه الى أسنى المراتب ، وتحفزه الى أبعد المعارك ، فيوفر على ذلك همه ، ويجمع له نفسه ، ويتحمل فيه أشق العناء ، وأكبر البلاء ، ولا يسأم ولا يضجر . وكلما نال منزلة ملها ، وطلب اسمى منها . وبيناهو في جده وكده ، وحزمه وعزمه اذ طاف به طائف من التصوف ، فاحتقر الدنيا وشؤونها ، والنعيم والبؤس والشقاء والهناء وسمع قول المتنبي :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد الا السيف والطعنة البكر
وتركك في الدنيا دويا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر

فهزىء به وسخر منه ، واستوطأ مهاد الخمول ورضى من زمانه بما قسم له ، وبينا يأمل أن يكون أشهر من قمر ، ومن نار على علم ، يسافر في الشرق والغرب ذكره ، ويطوي المراحل اسمه اذا به يخجل يوم ينشر اسمه في صحيفة ، ويذوب حين يشار اليه في حفل ويردد مع الصوفية قولهم « دفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » يعجب من يراه مجدا خاملا ، ومعرفة نكرة ، وعاملا مغمورا .

وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدره ، ويعدو طوره . ومتواضع ينخفض جناحه ، وتتضاءل نفسه . يتكبر حيث يصغر الكبراء . ويتصاغر حيث يكبر الصغراء . يتأله على العظماء حتى تظن أنه نسل الأكاسرة ووارث الجبابرة ويجلس الى الفقير المسكين يؤاكله ويتذلل له ، هو نسر أمام الأغنياء ، وبغاث لدى الفقراء . لا تلين قناته لكبير ، ويخزم أنفه الصغير .

يحب الناس جملة ، ويكرههم جملة . يدعوه الحب أن يندمج فيهم ، ويدعوه الكره أن ينفر منهم فحار في أمره ، فامتزج الحب بالكره ، فاستهان بهم في غير احتقار .

صحيح الجسم مريضه . ليس فيه موضع ضعف ولكن كذلك ليس فيه موضع قوة . يشكو المرض فيحار في شأنه الطبيب فيحنق على الاطباء ويرميهم ، بالعجز وما العاجز الا جسمه لم يستطع أن ينوء بنفسه .

كذلك كان رأسه . مضطرب . مرتبك . كأنه مخزن مهوش ، أو دكان مبعثر وضع فيه النعل القديم بجانب الحجر الكريم ، يؤمن بقول الفقهاء : القديم على قدمه ، ثم يدعو الى التجديد . ويتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء ، ومذهب الاختيار بمذهب الجبر ، وحب الغنى بمذهب أبي ذر وتجتمع في مكتبته كتب خطية قديمة قد أكلتها الارضة ، ونسج الزمان عليها خيوطه ، وأحدث الكتب الأوروبية فكرا وطبعا وتجليدا . ولكل من هذين ظل في عقله ، وأثر في رأسه . يسره تأبط شرا في بداوته وصعلكته «وجوته» في حضارته وامارته ويؤمن لشاعرية هذا وذاك . يسمع الى الملحدين فيصغي اليهم . والى المؤمنين فيحن شوقا لذكراهم يهمل في صلاته ويحافظ على صومه . ان ألحد فكره لم تطاوعه طبيعته ، وان كفر عقله آمن قلبه . ومن أصدقائه السكير والزاهد ، والفاجر الداعر والعابد . وكلهم على اختلاف مذاهبهم يصفه بأنه يجيد الاصغاء كما يجيد البليغ الكلام

* * *

سرت معه سيرة من جنسه ، فأحببته وكرهته ، ونقمت منه ورحمته ، وكنت آنس به وأستوحش منه ، يبعد عني فأتوق اليه ، ويطول مقامي معه فأتبرم به .

وأخيرا ، لم يقو جسمه على هذه الأضداد مؤتلفة ، والمتناقضات مجتمعة . فاجأه الشيب في شبابه ، وتقوس ظهره في ربيع عمره ،



مشروع القرش

دلالته على مبدأ التضامن القوى

للدكتور محمد حسين هيكل بك

أذاعت جماعة مشروع القرش فى العام الماضى أكثر من نشرة كتب فيها كبار الكتاب وذوى الرأى حتى لقد أصبح الانسان يشعر حين يفكر فى كتابة شىء جديد للمشروع وأصحابه بشىء من المشقة غير قليل. ذلك شأنى على الأقل لأنى لا أريد أن أتناول موضوعا الا أن يكون له مساس أو اتصال بالقرش ومشروعه. وقد طلبت الي جماعة القرش منذ اعتزمت اصدار هذا العدد من «الرسالة» أن أكتب ففكرت وفكرت وفكرت حتى انتهيت أخيرا الى ما أكتب اليوم عن دلالة هذا المشروع من ناحية الاتجاه الاقتصادي وتأييده لمبدأ التضامن الاقتصادى Solidarité على غيره من المبادىء وتأييده لهذا المبدأ فى حدود الاقتصاد القومى أكثر من تأييده اياه فى المدى الواسع الذى يعتبر العالم كله وحدة اقتصادية يجب أن تعمها روح التضامن من غير تقيد بالتفكير القومي ومن غير خضوع للمبادىء الاشتراكية المتطرفة.

أنا لا أظن أن الذين بدأوا التفكير فى مشروع القرش بدأوه متأثرين بهذا المبدأ الاقتصادى أو ذاك. بل أغلب الظن أنهم بدأوه متأثرين بخضوع مصر الاقتصادي لغيرها من الأمم خضوعا تستطيع بشىء من المثابرة أن تتخلص من نيره. واذن فهى فكرة الاستقلال الاقتصادى تدفع اليها عاطفة وطنية كالعاطفة التى دفعت الى النهضة فى سبيل الاقتصاد السياسى هى التي حركت فى نفوس السابقين الى فكرة مشروع القرش الدعوة الى مشروعهم وابرازه من حيز الفكرة الى حيز العمل. لكن ذلك لا يغير شيئا من دلالة المشروع على نحو ما قدمنا بل هو يزيده تأييداً. فلو أن فكرة الاستقلال الاقتصادي وحدها هى التي كانت الدافع والمحرك ولم تخالطها فكرة التضامن القومى لرأينا الدعوة الي هذا الاستقلال تلبس ثوبا آخر وتظهر فى صورة أخري. ومن قبل دعا الداعون الى تأليف شركة لانشاء بنك مصر تحقيقا لفكرة الاستقلال الاقتصادى ونجحت الدعوة نجاحها الباهر ومن قبل فكر بنك مصر وألف الشركات المختلفة التى يساهم فيها ويشرف عليها وكان لها من التوفيق الحظ الأكبر. وفى هذه الظروف جميعا كانت فكرة الاستقلال الاقتصادى هى الحافز الأول، وكانت العاطفة الوطنية التى تطمح الى هذا الاستقلال طموحا صادقا هى أكبر عون على الاكتتاب ثم على النجاح.

وكان ممكنا انشاء مصنع للطرابيش على الطريقة التى أنشئت بها شركة غزل ونسج القطن، وشركة مصايد الاسماك، وكان ممكنا انشاء مصنع للاصواف بالطريقة ذاتها. لكن مشروع القرش تأثر بالفكرة التي قدمنا فوجهته فى سبيل الاستقلال الاقتصادي وجهة جديدة؛ وجهة تضامن عام فى حدود الاقتصاد القومى لا يطبعها الطابع الفردى الذى يطبع الشركات المختلفة التى تصبو أولا وبالذات الى الربح، بل يطبعها طابع الايثار من جامعى القرش ومؤلفيه ومنظمى استثماره. الايثار الذى يجعل المرء يحب لغيره ما يحب لنفسه ويعمل لخير غيره بمقدار ما يعمل لخير نفسه. وان كان ايثاراً محدودا بالحدود القومية. ولهذا الايثار القومى عذره وفضله. له عذره فى أنه رد فعل طبيعى لثائرة الغرب وحرصه فى أن يستأثر بخيرات العالم كله وارزاقه تاركا للشرق ما يكفى لاقامة حياته كى يجد ويشتغل أجيرا لحساب الغرب الذى يؤيد أثرته هذه بالمدفع والغواصة والطيارة وله فضله فى أنه انهاض قومى لمصر كى تشعر بما تقدر عليه من غير كبير مشقة أو تضحية. وانهاض يقوم به شبابها فتيات وشبانا لخير الوطن غير ناظرين جزاء. الا أنهم أدوا للوطن خدمة شعروا بأن أداءها واجب عليهم.

والشعور بالتضامن الاقتصادي على الوجه الذى يلقى شباب القرش على الناس درسه مقدمة لحيوية قوية تربط الامة بروابط التضامن

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

وأصبح مترهل العضل، منسرق القوى، يظنه من رآه أنه بلغ أرذل العمر، ولداته فى رونق الشباب وميعة النشاط.

بلغنى مرضه، فلم أدركه الا جنازة فشيعته الى أن أنزل حفرته وأجن فى رمسه ونفضت من ترابه الأيدى!

وعدت موجع القلب باكيا، ضيق الصدر، مكروب النفس، أخذني من الحزن عليه ما تنقض منه الجوانح، وتنشق له المرائر، فعلمت أن حبي له كان أعمق من كرهى اياه، وأن نقمتى عليه لم تكن الا مظهراً من عطفي عليه، وأنى كنت أقسو عليه رحمة به!

رحمة الله عليه فقد حطم بعضه بعضا، ومضى قتيل روحه شهيد نفسه!

الأكيدة فيما سوى الميدان الاقتصادي من مرافق حياتها . فالرجل الذي يدفع القرش ويلبس طربوشاً مصرياً بثمن معتدل يشعر بانه يؤدي خدمة وطنية تعود عليه هو في الوقت نفسه بفائدة سريعة . وهذه احدى فضائل التضامن في كل شيء . وهذا الشعور يحمل كل مصري يقدر أن كل خدمة يؤديها الانسان لوطنه وكل قرش يدفعه له يعود عليه وعلى أمثاله بفائدة مضاعفة لما دفع . فكما أن قرشك الذي دفعته في العام الماضي يجعلك تلبس الطربوش تدفع ثمنه خمسة عشر قرشا بدلا من خمسين كذلك يجب أن تسأل عن كل قرش تدفعه ماذا يعود عليك أو على الوطن من نفعه ؟ فاذا لم يعد بمثل هذه الفائدة المضاعفة ما لم أن الذين ائتمنوا عليه يختالونه وأنهم لذلك غير أمناء ، وأنهم لا يقدرون معنى التضامن القومي وواجبهم ازاءه بل يقدرون فائدتهم الشخصية ناسين فائدة مواطنيهم ، ناسين بذلك فائدة الوطن ، مضحين بمصالحه في سبيل منافعهم الذاتية ، وفي سبيل وصولهم السريع الى الثروة على حساب غيرهم .

اذا صدقت رسالة مشروع القرش التي قدمنا وكانت بشيراً بتقدير المصريين لمبدأ التضامن ولو في الحدود القومية فقد آن للمصريين أن يستبشروا حقا بمستقبل قريب تتطور فيه النظرة الى الحياة من مختلف نواحيها تطوراً محسوساً . فنظرية التضامن لا تقف عند الميدان الاقتصادي بل تمتد به الى ميادين النشاط جميعا ، وفي مقدمتها ميدان الانتاج الفكري والفني . ونظرية التضامن لا يحدها زمن ، بل هي تقوم على أساس أن الثروة المادية والثروة المعنوية لأمة من الامم هما جميعا ثمرة مجهود الاجيال المتعاقبة ، وأن لاهل القبور فيها نصيباً أكبر مما لاهل الدور ، وأننا جميعا وحدة متماسكة في السعي والعمل بدأت من أول الزمن ان كان للزمن أول وتستمر على الزمن ما بقي الزمن . فاذا وقر الشعور بهذا الرأي في النفوس كان من آثاره أن يحس كل بانه مدين للمجموع أكثر مما هو دائن له ، وان تضامنه مع المجموع في المجهود العائد على المجموع وعليه بالفائدة من خضوعه لسلطان الانانية الغرور . وهنالك يشعر حقا بان واجباً عليه أن يبني لا أن يهدم ، وأن يكون منتجا أكثر منه مستهلكا ؛ وأن يعمل لخير غيره عمله لخير نفسه . وهنالك تزول البغضاء من النفوس فتحل محلها المحبة وتتلاشى فكرة التنافس لتقوم مقامها فكرة التعاون ويقضى في النفوس على شهوات الحقد والغيرة والغرور الكاذب لتقوم مقامها فضائل العطف والحنو والتواضع الجميل . وأنت قدير متى صورت هذا التطور كله لنفسك أن تصور الشجاعة الجديدة التي تغمر وادينا الخصب الجميل وأن تقدر سعة الخطوات التي تخطو في سبيل الحق والخير والسعادة .

لعل شبان القرش وفتيانه يوافقونني على أن هذه النوازع النفسية الجميلة تجول بخواطرهم مبهمة عند البعض اقل ابهاما عند الآخرين ولعلهم اذا خلوا الى أنفسهم وفكروا في الامر يرون أنهم لم يفتحوا عهد مصنع الطرابيش أو مصنع الصوف وكفى ، وانما هم يفتحون السبيل الى طور جديد يريدون أن يطبعوا به حياة وطنهم . ولعلهم يقدرون عظمة هذا التطور الجديد وعظمة مايجب على الشباب من مجهود تنهض بعدته أجيال الشباب المتعاقبة لتزيده قوة واثماراً . ثم لعلهم يحسون أن في الحياة قرشا غير القرش المادي الذي أدفعه من جيبي . فيها القرش المعنوي والقرش الروحي الذي يعاون على اذكاء معنى التضامن الروحي في النفوس بمقدار ما يعاون القرش المادي على تحقيق معنى التضامن الوطني في الحياة الاقتصادية . هذا القرش المعنوي . وهذا القرش الروحي ، الذي يستطيع كل مصري أن يؤديه استطاعته اداء القرش المادي — في أي ناحية يجب أن ينفق وأي مصنع يجب أن يتم كأن من آثاره ؟! هذا ما أترك للشباب البحث فيه ويقيني أنهم مهتدون الى خير ما يثمر البحث في هذه الناحية كما اهتدوا الى خير ما أثمر البحث في ناحية القرش . ؟ وهم أقدر على تصوير التضامن المعنوي والتضامن الروحي وما يثمران !..

مجمع اللغة العربية الملكي

لأستاذ كبير

في مجلة باريس التي ظهرت أول يناير فصل قيم ، دقيق مستفيض عن المجمع العلمي المصري ، الذي أنشأه بونابرت في القاهرة في شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ . تقرأه فيعجبك لفظه العذب وأسلوبه المتين ، ودقة صاحبه في البحث وعنايته بالتفصيلات ، وعنايته قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء بتمجيد فرنسا وبونابرت ، وما كان لهما من أثر بعيد في احياء مصر الحديثة ، وتمهيد السبيل أمامها الى الرقي المادي ، والمعنوي جميعاً .

وربما أحسست — وأنت تقرأ هذا المقال — شيئاً من الحزن الخفي يمازج هذا الفخر الظاهر ، الذي يملأ نفس «المسيو ف . شارل لبرو» كاتب هذا الفصل . لأن هذا الجهد العنيف الخصب المعجز ، الذي أنفقه الفرنسيون أثناء اقامتهم القصيرة بمصر في أواخر القرن الثامن عشر لم يؤت الثمر الذي كان ينتظره بونابرت وأصحابه ، والذي كان الفرنسيون يودون أن يكون شيئاً غير الفخر والذكرى .

واملك تعلم أن هذا المجمع العلمي المصري الذي أنشيء في القاهرة منذ قرن وثلث قرن ، على نظام المجمع الفرنسي ، وسعى الى نفس الاغراض العلمية والادبية التي كان يسعى لها هذا المجمع وسعى بعد ذلك الى أغراض عملية كانت تحتاج اليها سياسة الفاتحين وادارتهم . لعلك تعلم أن هذا المجمع لايزال قائماً الى الآن أعيد تنظيمه سنة ١٨٥٩ وهو الآن يعمل كما كان يعمل آخر القرن الثامن عشر يبحث أعضاؤه عن الرياضة والطبيعة والطب والعلوم الاقتصادية والسياسية والفنون والآداب ، ويبحث الآن كما كان يبحث من قبل عن حلول عملية لبعض

المسائل التي تمس الزراعة والري والصحة وما الى ذلك وهو يعتبر كأنه فرع من المجمع العلمي الفرنسي المستقر في باريس ولأعضائه اذا ذهبوا الى مدينة النور أن يشهدوا جلسات هذا المجمع . وهو دولي كما يقولون فيه علماء يمثلون الاجانب الذين يقيمون في مصر على اختلاف جنسياتهم، وفيه مصريون . ولكن مصر لا تكاد تحسه ولا تشعر به وان اعانته الحكومة المصرية بالمال ، وان كثر ماينشره من الكتب والمذكرات، وان أصدر نشرته في نظام واضطراد لأن لغته ليست اللغة العربية وانما هي اللغة الفرنسية غالباً والانجليزية أحياناً . ولست أدري أنشر هذا الفصل في مجلة باريس بمناسبة المرسوم الملكي الذي صدر في منتصف الشهر الماضي بانشاء المجمع الملكي للغة العربية أم هي مصادفة مطلقة ؟ أرادت أن تشتغل مجلة من أكبر المجلات الاوروبية بالمجمع العلمي المصري القديم ، في الوقت الذي تشتغل فيه الصحف المصرية والأندية المصرية بالمجمع الملكي الجديد .

ولكن شيئاً يدعو الى التفكير على كل حال حين نقرأ الفصل الذي نشرته مجلة باريس وهو نشاط الفرنسيين واسراعهم الى انشاء هذا المجمع وفتور المصريين وابطاؤهم في انشاء مجمعهم اللغوي.

أيام قليلة لا تكاد تبلغ الخمسة كفت لأن يتكلم بونابرت في مجمعه العلمي الى بعض العلماء الفرنسيين الذين كانوا يرافقونه ويصدر اليهم أمراً بان يجتمعوا فيضعوا له نظاماً ويرشحوا له أعضاء. ولأن يجتمع هؤلاء العلماء فيضعوا النظام ويرشحوا الأعضاء. ولأن يصدر المرسوم ويعقد المجمع جلسته الأولى وماهي إلا أسابيع قليلة حتى يجمع العلماء الفرنسيون الذين كانوا متفرقين في الاسكندرية ورشيد ليأخذوا مجالسهم في مجمع القاهرة ولا يكاد يعقد المجمع جلسته الاولى حتى يبدأ البحث وتقرأ المذكرات وتنشر الرسائل وكانت المطبعة والمعامل قد أعدت من قبل وماهي إلا أعوام حتى يظهر هذا الأثر الخالد لهذا المجمع وهو كتاب وصف مصر.

أما نحن فنفكر في مجمعنا اللغوي منذ أعوام طوال ونحاول انشاءه فلا نوفق . فكرنا فيه ان صدقتنا الذاكرة في أوائل هذا القرن وقبل الحرب الكبري وفكرنا فيه وحاولنا انشاءه أثناء الحرب وفكرنا فيه بعد الهدنة وفكرنا فيه بعد الاستقلال، وأعددنا له مشروعا ومشروعا ومشروعا وكان بعض هذه المشروعات يضيع فلا يهتدى اليه ، وبعضها ينام فيطيل النوم وبعضها يقبر قبل أن تنبعث فيه الحياة . وأخيراً وبعد التفكير والتقدير ، وبعد الذهاب والاياب، وبعد السفر والاقامة صدر المرسوم ، وقيل في البرلمان ان المجمع اللغوى قد أنشيء . وهو قد أنشيء حقاً مادام المرسوم الذي ينشئه ويحدد أغراضه ويرسم شكله ويبين له خطة العمل قد صدر ونشر وتحدثت عنه الحكومة في البرلمان . ولكنه منشأ بالقوة لا بالفعل ، لأن مكانه لم يعرف وأعضاءه لم يختاروا وأعماله لم تنشر ، والوجود بالقوة خير من العدم على كل حال . انفق بونابرت أياما لينشيء مجمعاً ينتج بالفعل في واد مجدب من العلم والفن والادب . وأنفقت مصر ثلاثين عاما لتنشيء مجمعها وتنشر أبحاثها .

وشيء آخر يدعو الى التفكير حين نقرأ الفصل الذي نشرته مجلة باريس . فالمجمع المصري القديم الذي أنشأه بونابرت لم يكن مقصوراً على جنسية بعينها ، وكان فيه منذ انشائه قسيس يوناني شرقي ، وهذا المجمع لايزال الى الآن دولياً ، لاتستطيع أمة أن تقول ان لها فيه الكثرة حتي ولا مصر التي تؤويه وتنفق عليه وتمكنه من الحياة ونشأ عن ذلك ان مصر هذه التي تؤوي وتمد بالمال لا تستطيع أن تقول إن مجمعها المصري يعترف بلغتها على أنها اللغة الرسمية ومجمعنا اللغوي الجديد دولي أيضاً ، سيمثل فيه الشرق العربي كله ، وستمثل فيه أمم أوروبية مختلفة ، يشتغل بعض أبنائها باللغة العربية . وقد تكون اللغة العربية لغة المجمع الجديد وقد يستعين أعضاؤه بالفرنسية أحياناً وبالانجليزية أحياناً أخرى، وربما كانت هذه اللغة أو تلك أيسر وأدنى الى أن يفهم بعض الاعضاء بعضاً . وكذلك يكون في مصر مجمعان دوليان أحدهما علمي قديم والآخر لغوى جديد . وكذلك تضرب مصر للناس أحسن الامثال في الايمان بأن العلم يجب أن يكون فوق الاوطان والقوميات واللغات الخاصة !

وشيء آخر يدعو الى التفكير حين نقرأ الفصل الذي نشرته مجلة باريس ، وهو أن المجمع الذي أنشأه بونابرت كان يعقد جلساته في اتصال غريب لايعرف الراحة ولا الهدوء ، وهو الآن يعقد جلساته مرات في الشهر أثناء سنة العمل ، لا يستريح الا في الصيف حين يتفرق الاعضاء .

أما مجمعنا اللغوى الجديد فسيجتمع شهراً في العام في الشتاء أو في الربيع ، فاذا فكرت في أن المجمع العلمي المصري واحد من مجامع تعد بالعشرات . وأنه لو استراح من العمل لم يكد العلم يخسر كثيراً وأن مجمعنا اللغوى الناشيء بالقوة سيكون يوم ينشأ بالفعل واحداً من مجامع لاتبلغ أصابع اليد الواحدة عداً ، وأنه يريد أو يراد له أن يضع معاجم في اللغة منها العادي ومنها التاريخي وأن يجدد اصطلاحات العلوم والفنون وينشيء منها مالم يوجد وأن يشرف بعد هذا كله على حياة الادب واللغة وصفائهما . نقول اذا فكرت في هذا كله وافقتنا على أن انعقاد مجمعنا اللغوى شهراً كل عام في الشتاء أو في الربيع أقل جداً من أن يتيح له النهوض ببعض ما يطلب اليه . ولكن المجمع اللغوى قد وجد على كل حال ولو بالقوة « وماش خير من لاش » كما يقول المثل ومن يدري لعل أعضاءه لا يكادون يجتمعون لاول مرة حتي تشرب قلوب بعضهم حب بعض ويعز كل منهم على صاحبه ويكرم في نفسه ، فلا يفترقون بل يبقون في القاهرة يعملون طول الخريف وطول الشتاء وطول الربيع ، ولا يتفرقون في الصيف الا كارهين ! .

صور من التاريخ الاسلامي

ابو ذر الغفاري

للأستاذ عبد الحميد العبادى

الأستاذ بكلية الآداب

العربى القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوضحهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدهم استمساكا بمايراه الحق ، وأعظمهم حمية ، أن يجرى عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف .

ذلك الخلق ، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الاخلاقية الحديثة ، يرجع الى البيئة الطبعية والاجتماعية التي نشأ العربى فى حجرها ، صيغ على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعى انما هو نظام الأسرة مكبرا . وكم للناس من فضائل هي وليدة بيئتهم ، وان شئت فقل : كم من فضائل الناس ماهو مرزوق غير مجلوب ، وموهوب غيرمكسوب !.

ولقد جاء الدين الاسلامى مطبوعا فى جملته بالطابع العربى ، موسوما بسمته ، قد سلك الى الحقيقتين الدينية والاجتماعية أقرب السبل ، وعبرعنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهومن ناحية يأمر بالتوحيد المحض ، ومن ناحية أخرى يأمربالتسوية بين الناس فى الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وان يحووا مواريث أمم التبس عليها أمر الحقيقتين المذكورتين ، فلم يلبث العرب ان تأثروا بتلك الأمم وانتقلت اليها أدواؤها وأصابهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة فقد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء والنحل ، أمراً صعبا مستصعبا ، له ظاهر وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الاسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول ان هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بذلك النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد فى الدنيا شغفا بها ، وتهالكا عليها . نعم ان أبا بكر وعمر أنفقا جهدا غير يسير فى سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءآ فى ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل فى القناعة والزهد وخشونة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال فلم يقسم بينهم الارض المفتوحة عنوة ، ثم زاد فمنع قريشاً من الخروج الى البلدان المفتوحة الا باذن والى أجل . فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التى تفيض

قوة وتصميما . . . . . ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا فى النار ،

فلما ذهب عمر لسبيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها ، وأقبلت تستقبل لين ذى النورين وحياءه الجم ، فانطلقت الى الامصار تقتنى المال الوافر والعقار الواسع والاقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وتتملك أرضاهي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا فى غلته . فأثرت قريش وربلت ، وصارت الى رفاغة عيش لم تلم لها من قبل بخيال . يحدثنا أبو الحسن المسعودى فيقول : « وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهى المعروفة فى هذا الوقت . . . . . وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططا بحيث ذكرنا من الامصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناسة بدار الطلحتين وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (!) وبناحية سراة (؟) أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس غير ماخلف من الاموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك »

ثم يقول المسعودى « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيامه ، ولم يكن مثل ذلك فى أيام عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة »

مهما يكن من المبالغة فى هذا النص ، فهو لاريب يشير الى حال كانت لابد مثيرة لمعارضة جادة غير هازلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الاسلامية وشيخين كان لايزال قريبا ، ومبادىء الاسلام الديمقراطية لم تمح بعد من الاذهان ، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال : نوع يستند الى العنف والقوة المادية ، وكان بالأمصار الكبرى ، حيث الجند الذين شدوا الدولة بسيوفهم والذين أصبحوا يرون قريشاً استأثرت بحقهم فى الفىء ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر من أهل الكوفة : —

يلينا من قريش كل عام ... أمير محدث أو مستشار

لنا نار نحرقهـا فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت مجمجم لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية فى الدولة العربية فقد خلفها فى ذلك الأمصار المذكورة . والحق ان الاوس والخزرج قد أدوا الواجب الذى من أجله لقبوا (بالانصار) ثم أخذ نجم مجدهم السياسى فى الافول . وأما النوع الآخر من المعارضة فكان يستند الى الدليل الشرعى والى مبدأ الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عاليا رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان ، صريع فى الحق كل الصراحة : ذلك أبوذر الغفارى .

* * *

كانت غفار من القبائل الضاربة حول المدينة ، وكانت فى الجاهلية تحترف قطع الطريق واعتراض القوافل التى تمر من أرضها وهى حرفة لم يكن بها بأس فى عرف ذلك الزمان ، . فنشأ أبوذر نشأة أعرابية ، واتصف بما يتصف به الاعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما فيها من خشونة وسذاجة . ويقال انه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه قومه من فساد العقيدة ، فاطرح الأوثان ووحد الاله وذلك قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . فلما نبىء عليه السلام وبلغت أباذر دعوته ، وجد مشاكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت اليه من قبل ، فرحل اليه من فوره ، وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم وكان خامس خمسة هم كل الجماعة الاسلامية اذذاك . ولقد أبى إلا أن يجهر فى مكة بدينه الجديد فتعمدته قريش بالأذى ثم ذكرت أنه من قوم تمر عيرها من أرضهم ، فكفت عنه .

عاد أبوذر بعد ذلك الى البادية فدعا قومه الى الاسلام فأسلم بعضهم ، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول الى المدينة ، وبذلك أصبحت غفار من القبائل التى ظاهرت الرسول فى محاربته قريشاً . وقد لبث أبوذر فى قومه الى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول فى غزوة تبوك ولازم صحبته الى ان توفى عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير الى أخلاق أبى ذر فيروى أن النبى سمعه يقول لآخر « يابن الامة » فقال عليه السلام « ما ذهبت عنك أعرابيتك بعد » وتخلفت بأبى ذر راحلته عن الجيش فى غزوة تبوك فتركها وادرك الجيش ماشيا وحده فقال الرسول « . . . يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » وورد فيه أيضا « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر »

وأقام أبوذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر فى العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وان لم يكن منهم ، ففرض له خمسة آلاف درهم فى السنة . ثم خرج الى الشام ، وغزا مع معاوية أرض الروم سنة ٢٣ هـ وجزيرة قبرس سنة ٢٧ هـ

* * *

فلما وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبوذر بالشام فرأى ما آل اليه المسلمون من الحال التى سبق وصفها . رأى رجال الدولة تسمى الفىء مال الله توصلا بهذه التسمية الخادعة الى الاستئثار به أو التصرف فيه كما يشاءون . ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين : أغنياء مترفين وفقراء معدمين ، فأثارت تلك الحال حفيظة أبى ذر وهو الذى شهد دورة الفلك كاملة ، ورأى العرب فى جاهليتهم وما صاروا اليه فى خلافة عثمان ، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك . فأعلن برنامجه فى الاصلاح . فاما الفىء فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الاغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء ، وذهب أبو ذر الى ان المسلم « لاينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم » أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا . وقد شاعت دعوته فى فقراء الناس ومحاويجهم فثاروا بالاغنياء ، وطالبوهم أن يشركوهم فى أموالهم ، فتوجه الاغنياء بالشكوى الى أمير الشام لذلك العهد : معاوية بن أبى سفيان .

أحب معاوية قبل كل شىء ان يختبر صدق أبى ذر فيما يدعو اليه ، فبعث اليه فى جنح الليل بألف دينار ولما كان الصبح أرسل اليه يستردها بحيلة احتالها فوجد أبا ذر قد فرقها كلها ، فعلم معاوية أن الرجل يفعل ما يقول . فأقبل يجادله فيما يدعو اليه وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى الفىء (مال المسلمين) بدلا من (مال الله) ولكن أباذر أصر على أن ينزل الاغنياء عن فضل أموالهم للفقراء ، وعبثا حاول معاوية أن يقنعه بان الآية التى يستدل بها انما نزلت فى أهل الكتاب وحدهم . وأعيا معاوية أمر أبى ذر فجنح الى أخذه بالشدة فنهى الناس عن مجالسته وتهدده بالقتل فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره الى عثمان فأمره بأشخاصه اليه ، فأشخصه اليه على شر حال .

لم يكن أبو ذر فى المدينة بأسعد منه فى الشام فقد حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته ، ويريه أنه لا يملك ان يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير فريضة الزكاة ، وان كل الذى يملك هو ان يدعو المسلمين الى الاجتهاد والاقتصاد . ولكن أبا ذر كان يريد برنامجه كاملا ، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله ، فرأى عثمان آخرة الامر ان يحصر الخطر فى أضيق دائرة ممكنة فنفى أبا ذر الى الربذة وهى مكان فى البادية ناء عن المدينة . والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر من ابعاد ابى ذر عن الناس ، فالروايات تقول إنه أجرى عليه رزقا يناله كل يوم وأنه لم يمنعه من الاختلاف الى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد أعرابياً .

لم يكن أبوذر ثائرا ولكن طالب اصلاح ارتآه . ومما يدل على عدم نزوعه الى الثورة انه وهو فى منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا عن عثمان فطلبوا اليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم ، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه : وأما مذهبه فى الاصلاح فلا شك أنه ابن بجدته ، فالاسلام لايحظر الثروة ولا الملكية ، ولا يوجب على المسلم حقا فى ماله غير الزكاة ، وكل ماينهي عنه الاسلام فى هذا الصدد انما هو ان تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته .

وعندى أن حركة أبى ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى الى حركة مزدك الشيوعى الذى ظهر بفارس على عهد قباذ وكسري انوشروان ، والذي كاد يقلب نظام المجتمع الفارسى رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه . فاذا عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الاسلام وان يهوديا من أهل صنعاء يعرف بابن السوداء ادعى الاسلام فى خلافة عثمان وجعل يطوف الامصار الاسلامية داعيا الى الثورة ، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما آنس فيه من الميول الاشتراكية ، اذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقع فى الدولة الاسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

***

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة الامل فلما أدركه الموت فى سنة ٣٢ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدئه حتى النهاية ، وعلى أنه حقا قد مشي وحده ومات وحده ، يروي ابن سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبا ذر حارت امرأته فى أمرها لتوحدها فى تلك الفلاة « وكانت تشد الى كثيب تقوم عليه فتنظر ثم ترجع اليه فتمرضه ، ثم ترجع الى الكثيب ، فبينا هى كذلك اذا هى بنفر تخد بهم رواحلهم كأنهم الرخم على رحالهم ، فألاحت بثوبها ، فأقبلوا حتى وقفوا عليها ، قالوا مالك ؟ قالت امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه . قالوا ومن هو ؟ قالت أبوذر . ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ، ووضعوا السياط فى نحورها ، يستبقون اليه حتى جاءوه . فقال لهم .... ولو كان لى ثوب يسعنى كفنا لم أكفن الا فى ثوب هو لى ، أولا مرأتى ثوب يسعنى لم أكفن الا فى ثوبها ، فأنشدكم الله والاسلام الا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا أو بريدا . فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك الا فتى من الانصار قال انا أكفنك فانى لم أصب مما ذكرت شيئا ، أكفنك فى ردائي هذا الذى على وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى . قال أنت فكفنى .... فكان ذلك الفتى الانصارى هو الذى تولى تجهيزه ثم دفنوه جميعا .

وهكذا انطفأ سراج هذه الشخصية الفذة العجيبه . أنها لاشك من تلك الشخصيات الى يقدمها الزمن عادة بين أيدي الاحداث الخطيره إنذارا للناس واقامة للحجة عليهم اذا لج بهم الغرور فلم يرعووا ولم يزدجروا .

على أن روح أبى ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه فى تلك الفلاة البلقع ، فقد ظل صوته داويا الى أن تحقق ما أنذر به المدينة من « غارة شعواء وحرب مذكار » ووقفت الفتنة الكبرى التى يقال أنها أنتجت كل فتنة حدثت فى الاسلام . ولقد كانت غفار ممن نهض فيها وألقى فى نارها حطبا .

العلم والخلق

للدكتور منصور فهمى استاذ الفلسفة بكلية الآداب

وجهة العالم فى أن يدرك الأمور على ما هى عليه ، ونشاطه فى أن يكسب للمعرفة من ميدان الجهل ، وأن ينشر النور حيث يخيم الظلام . ووجهة الخلق فى أن يصور الأمور على ما ينبغى أن تكون عليه الأمور ، وأن يلفت الأنظار الى مثل عليا تحفز بالناس للتسامي اليها والارتفاع بأنفسهم وبالحياة الراهنة الى ما هو أرفع من أنفسهم وأرفع من الحياة الراهنة .

ولطالما اضطربت الافهام واستغلق الأمر على الباحثين حين تعرضوا لاستجلاء الصلة بين العلم وبين الأخلاق فحسبوا أن الوشائج بينهما مقطوعة حين نظروا الى وجهتين مختلفتين : وجهة من يصف ويحلل ، ووجهة من يرتضى مثلا ويوجه اليه ، وجهة من يهز صوته الفكر ويتردد صدى هذا الصوت بين جوانب الدماغ ، ووجهة من تؤم نغماته تجاويف القلب وتسرى فى أقنية الدم ، وعلى أسلاك العصب لتدفع بالنفس كلها الى العمل .

ولطالما رأى غير قليل من المفكرين أن العلم النظرى وثمراته التطبيقية لاتؤثر فى الناس لتهذيبهم على نحو ما تؤثر العقائد الدينية والفلسفة والمثل العليا ، حتى أن بعض قادة الفكر فى الزمن الحديث أمثال « بسكال » و « ديكارت » اصطنعوا لانفسهم ذلك الرأى فتخطوا العلم ليجدوا فى الدين وفى العرف مرشـــدا لسلوكهم ومأمنا لأحكامهم وتقديرهم فى اتخاذ الحسن من الأفعال وتجنب القبيح منها ، وفي اتخاذ السبيل لراحة النفس واطمئنانها . بل قد ذهب غير قليل من مفكرى عصرنا الى إساءة الظن بالعلم فحملوه أوزار الحروب القاسية ، وأخطار الفراغ الممل ، وأضرار الثورات الاجتماعية العنيفة ومساوىء المطامع والتنازع الحاد ، حتى وقد بالغوا فى لوم العلم الى حد أن يروا على نحو ما يرى « اينشتين » فى أنه ذلك المسىء الى الحريات الانسانية ، فمن ينظر الى تلك المصانع وما فيها من آلات متنوعة ، وأعمال موزعة ، يتبين أنها تتناصر جميعاً على استعباد عدد من العمال وفير ، وتسخيرهم تسخيراً آليا تضمحل معه نفوسهم ، وتهن من تأثيره كرامتهم ، بل ربما يذهب الذاهبون فى مذهبهم العدائى للعلم الي

حد أقسى مما تقدم ، فلا يشفع له عندهم فضل المحسن الى البشر اذ يقاوم الأمراض الفتاكة ، وييسر المسافات البعيدة ، ويرفه الخلق في كثير ، فمع ذلك ورغم ذلك قد ينكرون على العلم قيمته وفضله لأن من يستطيع الاحسان في شيء قد تكبر تبعته ويعظم أثمه اذا هو استخدم سلاحه للاساءة والعدوان وهو عارف لمواضع الاحسان . وأي اساءة أعظم من اساءة الحروب الممزقة بجهود العلم ؟ وأي عدوان أشد من تحويل عدد عديد من الناس الى صنف من المخلوقات يستغرق في الانتاج شهوة ومن غير قصد ، ويستغرق في الاستهلاك شهوة ، ومن غير حد ؟ .

على أن هذا النحو من النظر العدائي ربما كان بعض مصدره ما تتعرض اليه النفوس والملكات أحيانا من الخلط بين الوسائل وغاياتها ، وبين العلل ومعلولاتها ، وبين الحال وبين المحل مما هو شائع ذائع .

وعلى هذا النحو خلط الكثيرون بين العلم المحض الخالص وبين نتائج العلم وتطبيقاته في شؤون الحياة ، وكذلك قد ظلموه على نحو ما يظلم السيف المهند في يد الجندي الجبان

وليس حظ الساذج والعامة في الخلط بين العلم وتطبيقاته بأربى من حظ بعض الخاصة وأشباههم في هـــذا الأمر . فقد يطلب الكثيرون من معاهد العلم ودوره أن تفيض عليهم وعلى أبنائهم من التعليم بما ينتفع به الناس انتفاعا عملياً حتى شاعت في السنين الأخيرة عندنا وعند غيرنا من الأمم بدعة العلم العملي والتعليم العملي ونادى بها أكثر من كاتب ، وقال بها أكثر من مشتغل بشؤون التعليم . ولو أنصف هؤلاء وهؤلاء لاعترفوا للعلم بطبيعته النظرية ، وقدروا له حرصه على المعرفة لذاتها فحسب ، دون تقدير لنتائجها الضارة أو النافعة .

لكن غير المشتغلين بالعلم الخالص من أفراد الناس بخاصة هم الذين وجهوا نتائج العلم للخير وللشر وللحسن وللقبيح ، دون أن يكون للعلم في ذاته دخل في ذلك التوجيه . فما على العلم اذن وماله اذا ما استخدم الانسان بعض آثاره ليعيث بها فسادا أو ليصلح بها في الوجود ؟ .

ليس في قانون البحث العلمي ما يلزمنا أن نحكم بأن غازا من الغازات يجب أن يتوجه لحيث يحيي أو لحيث يميت ! وليس في قانون العلم أن جوهرا من الجواهر يجب أن يكون سما ناقعا أو بلسما نافعا ! لكن طبيعة الانسان بما فيها من رفعة أو ضعة هي التي تستخدم السم لتجعل منه الدواء أو لتجعل منه الداء ، وهي التي تستخدم الشيء الواحد يكون نعمة أو نقمة . فمدار الخير أو الشر اذن انما هو منوط بالانسان

. . . على أن الناظر المدقق لو أنه تأمل مليا لوجد أن العلم شمل عدة عناصر تهيء النفس للتسامي والخير . ذلك لأن العلم بشيء من الأشياء ، وتكشف الحق في جهة من الجهات ، واطلاق النور في مكامن الديجور كل ذلك انما يشعر بعظمة العقل وجدارة الانسان ، في الشعور بالعظمة والجدارة أول مصدر للخلق ونبالته . ولست أريد في هذه الكلمة الوجيزة أن أتعرض لما يحدثه العلم واصطناعه في تقوية الاستعدادات الخلقية الكريمة ، وحسبي أن أنبه طالب العلم الى أن العلم في جوهره نبيل وأن المنتمي اليه يجب أن يكون نبيلا . فيا طالب العلم لا تأثم في حقه فتتوجه به الى منخفض من الحياة ، والى ما في الدنيا من ضعة ! واعمل دائما على أن تعلو بعلمك الى السماء وتحلق به حيث شرف النفس ورفعة القصد وآفاق المعاني السامية وعالم الخير

التجديد في الدين

للاستاذ أمين الخولي المدرس بكلية الآداب

مقال لمشروع القرش ، وحول مشروع القرش ، يحضر النفس ذكر الشباب ، والتضامن والاستقلال والحياة والقوة وتجديد مجد مصر .. ثم نحن الآن في رمضان : صوم وزهد وتدين .. فمن تداعى هذه المعاني يأتلف العنوان « التجديد في الدين »

عنوان قد يطلع على البعض جريئا بل ربما كان مزعجا لكثير من المتدينين الذين يتعجلون الحكم على الاشياء قبل اختبارها ويبتدرونها بتلك الأحكام الناضبة السريعة . فان يفعلوا ذلك قبل الفراغ من المقال فهذا هو الذي يفقد أحكامهم قوتها وحرمتها . وإن يتريثوا حتى يقرؤا فسيرون أنهم كثيرا ما يثورون في وجه من لا يستحق منهم الا التقدير .

عنوان قد يكون نابيا قلقا عند غير المدينين . لأنهم يرون في الشيوخ صورة المحافظة المسرفة ، بل يعتبرونهم حجر عثرة في سبيل التجدد على اختلاف ألوانه . ويحملونهم تبعة الكثير مما أوقف الشرق وأخره . ويرونهم جند الرجعية ومعقلها . ويصدر الكثيرون عليهم أحكاما رهيبة . لكنها سرية قل من يجرؤ على مجاهرتهم بها . فأصحاب تلك الآراء والأحكام قد يعدون هذا العنوان دعابة مازحة ومفارقة فكهة . لكنهم إن يتعجلوا الحكم كذلك قبل أن يقرؤا فهذا بعض تطرفهم الذي يفقد جهادهم قوته ويعوق نجاحه . وإن يطمئنوا حتى يقرؤا فسيرون أن كثيرا مما ثاروا فيه على الدين ليس من الدين في شيء وأن الدين غير المنتسبين الى الدين .

العنوان حقيقة صحيحة صريحة لا فكاهة فيه ولا مروق « ان شاء الله » . ففي الدين فكرة واضحة عن التجديد تبين ناموسا كونيا وتنبه الى سنة اجتماعية مطردة لا تتبدل . اذ ورد في الحديث « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها » أو ما هذا معناه . وهو حديث صحيح نص على صحته متقدمون منهم البيهقي والحاكم ومتأخرون منهم ابن حجر والعراقي .. وراجت فكرة التجديد في الاسلام . وعني العلماء ببيان مجددي كل مائة وتعيين اسمائهم ، وأعمالهم والترجمة لهم ... ولا أريد هنا وفي هذه الالمامة الصحفية ، أن أعنى باستقصاء تاريخ فكرة « التجديد في الدين » بل أكتفي بأن أشير في

ذلك الى مجموعة تنتظم من خبر التجديد والمجددين صورة كاملة من الهجرة الى اليوم ، وهى تتألف من منظومة للسيوطى فى هذا الموضوع سماها « تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين » ومطلع هذه المنظومة :

لقد أتى فى خبر مشتهر — رواه كل حافظ معتبر
بأنه فى رأس كل مائة — يبعث ربنا لهذى الامة
منا علينا عالما يجدد — دين الهدى لانه مجتهد

وعلى هذه المنظومة شرح للشيخ محمد المراغى المالكى الجرجاوى الذي عاش فى القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين وسمى هذا الشرح « بغية المقتدين ، ومنحة المجدين ، على تحفة المهتدين . . . الخ » . شرح فيه منظومة السيوطي ثم أكمل أسماء المجددين نظما الى عصره وشرح نظمه على طريقة شرحه نظم السيوطى (١)

وفى بيان الدينيين لمعنى التجديد تراهم يقولون : انه نفع الامة ، ودفع المكاره عن الناس ، ونصرة الحق وأهله ، واحياء ما اندرس من أحكام الشريعة ، وماهى من معالم السنن وما خفى من العلوم الدينية ويتحدثون عن تغير الحياة واستحداث أشياء تحتاج الى تناول جديد وحسبك من قولهم فى معنى التجديد ماورد فى المجموعة السابقة من عبارة النظم والشرح ممتزجتين وهى : « وانما كان مجددا لانه أى المبعوث فينا مجتهد وشأن المجتهد التجديد . . . . » ولئن اكتفوا فى الأزمنة الاخيرة بالاجتهاد المقيد فحسبهم ان ناطوا التجديد بالاجتهاد وفسروه به وأبعدوه عن التقليد الذي هو آفة العقول وعلة الجمود . وتراهم حين يعدون أسماء المجددين فى كل طبقة قد يعددون المجددين ويخصون كل مجدد بفرع من فروع العلم أو العمل . فيوسعون الدائرة توسعة محمودة

تلك فكرتهم فى تجديد الدين : وانها لفكرة فى التجديد متزنة رزينة مقدرة لنظام الحياة وتدرجها معادية للجمود وقاضية عليه قاتلة لاهله . . . . واذا كان الدين وهو وحى الهى والاسلام وهو رسالة لا رسالة بعدها هو الذى يقرر لاهله أن نظام الحياة العاملة يحوجه الى التجدد ويهيء الله له على الزمن من ينفى عنه مظاهر الجمود وعوامل الوقوف ؛ اذا كان هذا حال الدين ، وذاك شأن الاسلام ، فمرافق الحياة ، وظواهر المعيشة التى لاثبات لها ولا استقرار ، والتى هي وليدة الظروف وصنعتها ، أشد حاجة الى التجدد والتغير . . . . . . واذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتدينين ، وفضلا من الله ونعمة ، فالمنتسبون الى الدين حين يقاتلون المبعوثين لهذا التجديد ، ويجمدون على ما وجدوا عليه آباءهم ، انما ينكرون نعمة الله ، ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجا — وما هم ببالغيه — وهم ، وبين أيديهم ذلك الاثر ، وعليهم ذلك الواجب لا يأثمون بجمودهم اثما واحدا ! بل آثاما كثيرة : اثم لانهم لا يتجددون واثم لانهم لا يجددون واثم لانهم يعوقون المتجددين المجددين فى تعنت أصم لا يميز الخبيث من الطيب مهما تبينا ولا يعرف داعى الله من داعى الشيطان

(١) ان هذه المجموعة مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٨٧ تاريخ

وما ننسى أن الكلمة لمشروع القرش وحول مشروع القرش فلنعد الى مصر المتجددة بجهاد شبابها مصر ذات الحيوية الفياضة وصاحبة الشخصية الخالدة والتى أسدت الى الانسانية والحضارة أطهر الأيادى وأشرفها على تطاول السنين وتمادى الايام . نعود لنقول ان مصر كعادتها فى ذلك قد اضطلعت من تجديد الدين بالحظ الاوفر وساهمت فيه بالنصيب الاكبر على سعة الامبراطورية الاسلامية وترامى أرجائها وانتظامها الواسع الأفيح أقطار الدنيا القديمة . فأنت حين تعرض أسماء أولئك المبعوثين المجددين على رؤوس المئات خلال الثلاثة عشر قرنا من تاريخ الهجرة تراهم يعدون هكذا :

فى المائة الاولى — عمر بن عبدالعزيز
« « الثانية — الشافعى
« « الثالثة — ابن سريج العراقي أو ابو الحسن الاشعرى
« « الرابعة — الباقلانى أو الاسفراييني
« « الخامسة — الغزالي
« « السادسة — الفخر الرازى
« « السابعة — ابن دقيق العيد الشافعى
« « الثامنة — البلقيني أو غيره
« « التاسعة — السيوطي
« « العاشرة — الرملى أو غيره
« « الحادية عشرة — عبد الله بن سالم البصرى
« « الثانية عشرة — الدردير
« « الثالثة عشرة — أحمد الشرقاوى
« « الرابعة عشرة . . . . ؟

وتجيل نظرك فى هذه الجريدة من الاسماء فترى — كما لاحظ القدماء أنفسهم — ان الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية رجال أنجبتهم وآوتهم وعلمتهم مصر ذات الفضل العتيد على المدنية منذ عرفها بنو آدم ، فبين هؤلاء الثلاثة عشر مجددا ثمانية من المصريين هم : عمر بن عبدالعزيز وليد مصر الناشىء بها والشافعي الذى ضمته وفيها علم وابن دقيق العيد القشيرى المنفلوطى ، والبلقيني المنسوب الى بلقينة قرب المحلة والسيوطى والرملى المنسوب الى رملة قرب منية العطار تجاه مسجد الخضر والدردير العدوى والشرقاوى الجرجاوى ... وان شئت عددت لمصر منهم تسعة فمصر فى القرن الرابع عشر الهجرى هي قلب الشرق الخافق وعقله المفكر وقد تصدرت فى شجاعة ونبل لحمل أعباء تلك القيادة منذ بدأ ذلك الشرق يمسح عن عيونه آثار النوم ويتهيأ ليقظة نشطة باهرة تمدها عزمة قاهرة تكتب له النجاة وترد له حقه فى الحياة ... ولا أريد اليوم أن أسمى مجدد هذه المائة أو مجدديها من المصريين حتى لا أحابى أحداً ، ولا ألقن رأيا وانما أترك الكلمة فى ذلك لشبان الشرق وشبان مصر .

« البقية على صفحة ١٨ »



حلقات الادب في الفسطاط

للاستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

لبثت الفسطاط عاصمة الاسلام في مصر منذ قيامها سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) حتى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . وفي ذلك العام كان الفتح الفاطمي ، وكان قيام القاهرة المعزية التي وضعت خططها الاولى في شعبان سنة ٣٥٨ ، ونشأت القاهرة بادىء بدء مدينة ملكية فقط لتكون قاعدة للدولة الجديدة ومنزلا للخلافة الفاطمية (١) ، ونشأ جامعها الازهر الذي أسس بعد قيامها بأشهر قلائل (جمادي الاولى سنة ٣٥٩هـ) مسجدا للامامة الجديدة فقط . ومضى زهاء نصف قرن قبل أن تبدو العاصمة الجديدة في شيء مما تميزت به بعد ذلك بين الامصار الاسلامية من عظمة وروعة وبهاء ، وقبل أن يبدأ الجامع الأزهر تاريخه الادبي الباهر . ولكن ظل الفسطاط بعد ذلك عصورا تحتفظ بمكانتها الادبية ، ولبثت حلقاتها ولياليها الادبية شهيرة بين أدباء المشرق والمغرب . وبدأ الجامع الازهر ينافس المسجد الجامع في حلقاته ومجالسه الادبية منذ عهد الخليفة العزيز بالله ، اذ استأذن وزيره الشهير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨ هـ ان ينظم بالازهر على نفقته بعض مجالس القراءة والفقه . وفي خاتمة القرن الرابع ، في عهد الحاكم بأمر الله ، انشئت دار الحكمة بالقاهرة ونظمت مجالسها ، فكانت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية

ولسنا نتحدث عن القاهرة ومكانتها العلمية والادبية بين الامصار الاسلامية في العصور الوسطى ، ولا عن أزهرها الذي غدا فيما بعد أعظم جامعة اسلامية ، كذلك لسنا نتحدث عن دار الحكمة ومجالسها الشهيرة التي كانت تتخذها الخلافة الفاطمية اداة لتحقيق دعوات دينية فلسفية غامضة ، فذلك ليس من موضوعنا . وانما نتتبع تاريخ الفسطاط الادبي ، بعد قيام القاهرة ، منافستها العظيمة الفتية

فقدت الفسطاط اهميتها السياسية والرسمية ، ولكنها احتفظت عصورا أخرى باهميتها الاجتماعية والادبية وفي فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الادبي . وهذا ما يشيد به بعض أدباء المشرق والاندلس الوافدين على مصر في عصور مختلفة . ومن هؤلاء أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاندلسي الذي وفد على مصر في اوائل القرن السادس الهجري (٢) في عهد الافضل شاهنشاه . ودرس الحركة الفكرية والادبية في مصر يومئذ وكتب عنها رسالة لم يصلنا سوى شذور قليلة منها . وفي هذه الشذور (٣) يتحدث ابن أبي الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها ، ومجالسهم واجتماعاتهم بما يدل على ان الفسطاط كانت ماتزال مركزا هاما للحركة العلمية والادبية ووفد ابن سعيد الاندلسي الى مصر بعد ذلك بنحو قرن ، نحو سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م) ، ولبث بها أعواما طويلة يدرس شئونها واحوالها ، فاذا بالفسطاط ما تزال تحتفظ باهميتها الادبية ، واذا بها ماتزال مثوى للأدباء ومركزا لأبهاء الادب ، واذا لياليها الادبية ما تزال شهيرة . ويفرد ابن سعيد في كتابه « المغرب في حلى المغرب » فصلا كبيراً للفسطاط عنوانه : « كتاب الاغتباط في حلى الفسطاط » (٤) يتحدث فيه عن المدينة ، وزياراته لها واجتماعاته بادبائها ، ولا سيما شاعرها الكبير جمال الدين أبي الحسن الجزار ، أشهر شعراء مصر في هذا العصر ، وملقيه من كرم وفادته وشهده من روائع أدبه ، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ ، على مايظهر شابا في عنفوان شاعريته لأنه توفي بعد ذلك بنحو أربعين سنة في (٦٧٩هـ ١٢٨٠ م) (٥) وهو صاحب الارجوزة التاريخية الشهيرة المسماة « بالعقود الدرية في الامراء المصرية » وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو بن العاص الى الملك الظاهر بيبرس (٦) . وكانت

(١) راجع تاريخ القاهرة ونشأتها وتطوراتها ، وتاريخ خططها في كتابي « مصر الاسلامية » و « تاريخ الخطط المصرية » .

(٢) توفي امية بن ابي الصلت الاندلسي سنة ٥٢٩ هـ

(٣) توجد عدة صحف مخطوطة من هذه الشذور ، ذيل بها كتاب « أخبار سيبويه المصري » الذي سبقت الاشارة اليه (والمخطوط بمعرض دار الكتب رقم ٣٠٤ تاريخ) . ومما يدل على ان هذه الشذور انما هي جزء من رسالة كتبها امية بن أبي الصلت عن مصر ، هو اشارة ابن ابي اصيبعة اليها في كتاب مناقب الاطباء (ج ٢ ص ١٠٦) ، وكذلك اقتباس ابن القفطي منها في كتابه « اخبار الحكماء » (ص ١٢٧)

(٤) راجع هذا الكتاب في مجموعة الكتب التي يضمها كتاب « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الاندلسي . ومنه اربع مجلدات مخطوطة بدار الكتب هي الوحيدة منه . وليست متصلة ولا متناسقة . لانها جزء من الكتاب الاصلي فقط (رقم ٢٧١٢ تاريخ) . وقد نشر المستشرق تا كامت منه قسما هو « كتاب العيون الدعج في حلى بني طغج »

(٥) راجع ترجمة جمال الدين الجزار في السيوطي — حسن المحاضرة — (ج ١ ص ٢٧٢) . وقد اورد له ابن سعيد ايضا ترجمة في « المغرب » في المجلد الثاني من المخطوط الورقة ١٤١

(٦) نشرت هذه الارجوزة برمتها في حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١)

الفسطاط قد عادت يومئذ فاستردت كثيرا من بهائها السالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الملكية الجديدة التى أنشأها الملك الصالح فى جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط (سنة ٦٣٨هـ) واتخاذها قاعدة للسلطنة ، وانتقال البلاط والحاشية اليها ، وسكن كثير من الامراء والكبراء بالفسطاط فى الضفة المقابلة لنهر النيل ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد فى قوله ، « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها الجزيرة الصالحية (جزيرة الروضة) ، وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر »

ويشير ابن سعيد فى كتابه السالف الذكر الى ليالي الفسطاط واجتماعاتها الشائقة فى الليالى القمرية ، وأشهرها ما كان يعقد فى القرافة مما يلى المقطم فى قبة الامام الشافعى التى كانت قد أنشئت على قبره . وكان المسجد الجامع قد فقدت أهميته شيئا فشيئا منذ قام منافسه القوى ، الجامع الازهر وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة ، ولكن نراه ما يزال حتى القرن السابع مثوى للأدب واجتماعاته ، ورغم عفائه وقدمه ونسيان أمره ، كانت تعقد فى عرصاته حلقات للقراءة والدرس ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد أيضا خلال وصفه للمسجد الجامع فى منتصف القرن السابع ، بيد ان هذه الحلقات لم تكن من الاهمية والرونق والانتظام مثلما كانت عليه فى القرون الاولى يوم كان المسجد الجامع مجتمع الامراء واقطاب التفكير والادب . وكانت يومئذ أقرب الى الصبغة المدرسية . ومع ذلك فقد بقى للمسجد الجامع حتى ذلك العصر ـ كثير من ذكرياته الادبية المجيدة . وهى كعبة الادباء والشعراء . يجتمعون فيه كلما سنحت فرص الاجتماع لعقد الاسمار والمطارحات الادبية . واليك نموذجا لهذه الاجتماعات الشهيرة اورده ابن فضل العمرى فى موسوعته الكبيرة « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » فى حديثه عن المسجد الجامع .

« حكى على بن ظافر الازدى . قال : روى لي أن الاعز أبا الفتوح ابن قلاقس . وابن المنجم اجتمعا فى منار الجامع فى ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون . وبرز فى صفحة بحر النيل كالنون . ومعهما جماعة من غواة الادب الذين ينسلون اليه من كل حدب . فحين رأوا الشمس فوق النيل غاربة . وأي مستقرها حاربة ذاهبة . وقد شمرت للمغرب الذيل . واصفرت خوفا من هجمة الليل . والهلال فى حمرة الشفق . كحاجب الشائب أو زورق الورق . فاقترحوا عليهما أن يصنعا فى ذلك الوقت النزيه . على البديه . فصنع ابن قلاقس :

انظر الى الشمس فوق النيل غاربة
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وابقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال ، فهل وافى لينقذها
فى إثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

وصنع ابن المنجم :

يارب سامية فى الجو قمت بها   أمد طرفى فى أرض من الافق
حيث العشية فى التمثيل معركة   اذا رآها جبان مات للفرق
شمس نهارية للغرب زاهية   بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
والهلال انعطاف كالسنان بدا   من سورة الطعن ملقى فى دم الشفق

« وحكى على بن ظافر أيضا ، قال : اخبرنى ابن المنجم الصواف بما معناه : قال ، صعدت الى سطح الجامع بمصر فى آخر رمضان مع جماعة فصادفت به الاديب الاعز أبا الفتوح بن قلاقس ونشو الملك على بن مفرج بن المنجم وشجاعا المغربى فى جماعة من الادباء . فانضممت اليهم . فلما غابت الشمس وفاتت ، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم ان يعملا فى صفة الحال . فكان ما صنعه نشو الملك:

وعشى كأنما الافق فيه   لازورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمـ   ـس ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا   را فاعطى الرهين نصف سوار

وكان الذى صنعه ابن قلاقس :

لاتظن الظلام قد أخذ الشمـ   ـس واعطى النهار هذا الهلالا
انما الشرق اقرض الغرب دينـ   ـارا فاعطاه رهنه خلخالا (١)

ونحن نعرف أن الشاعر المصرى الاسكندرى الاشهر ابن قلاقس كان من شعراء النصف الاخير من القرن السادس الهجرى (٥٣٢ ـ ٦٠٧ هـ) وكذلك ابن المنجم من شعراء هذا العصر . واذن فقد كان المسجد الجامع ، حتى أوائل القرن السابع منتدى لأكابر الادباء والشعراء ، وكانت الفسطاط لا تزال شهيرة بلياليها وحلقاتها الادبية ، حتى بعد ذلك بنحو نصف قرن على نحو ما يشير اليه ابن سعيد الاندلسى .

***

ومنذ أواخر القرن السابع الهجرى نرى الفسطاط تفقد اهميتها الاجتماعية والادبية شيئا فشيئا ، ونرى المسجد الجامع وقد غمره النسيان والعفاء . وقلما نظفر فى سير القرن الثامن بما ينبىء عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الادبية . بل نرى الفسطاط فى هذا العصر تنتهى الى ضاحية متواضعة لمدينة القاهرة . ونرى القاهرة تغمر بعظمتها وبهائها وأهميتها العلمية والادبية عاصمة الاسلام الاولى فى مصر . ونراها مثوى كل حركة فكرية أو أدبية . ونرى الجامع الازهر كعبة العلماء والادباء لا فى مصر وحدها بل فى العالم الاسلامى كله ، على أن مؤرخ الآداب فى مصر الاسلامية لا يسعه ـ حين يعالج تاريخ الآداب فى عصور الاسلام الاولى الا أن يلاحظ أهمية الدور الكبير الذي أدته الفسطاط وحلقاتها ولياليها الادبية ، وأداه مسجدها الجامع فى تطور الحركة الفكرية والادبية فى مصر .

(١) مسالك الابصار ج ١ (طبع دار الكتب) ص ٢١٠ و ٢١١

من طرائف الشعر

نداء للشباب

كن قوياً ، كن عزيزاً

للدكتور محمد عوض محمد الاستاذ بالتجارة العليا

أتعنو عليك قلوب الورى … اذا دمع عينيك يوما جري ؟
وهل ترحم الحمل المستضام … ذئاب الفلا أو أسود الشري ؟
وماذا ينال الضعيف الذليل … سوى أن يحقر أو يزدرى ؟
لقد سمع النسر نوح الحمام … فلم يعف عنها ولم يغفرا
بل انقض ظلما ليغتالها … وأنشب في نحرها المنسرا
ومارد عنها الاذى ذلها … ولا انها ماجنت منكرا
فكن يابس العود صلب القناة … قوي المراس متين العرى !
ولا تتطامن لبغي البغاة … وكن كاسراً قبل أن تكسرا
وأولى لمن عاش مثل الثرى … ذليلا لو احتل جوف الثرى
قلوب الأنام كصم الصفاة … وشق على الصخر أن يفجرا
أرى أيدياً لاغتيال تمد … فأجدر بها الآن أن تبترا !
اذا كنت ترجو كبار الأمور … فأعدد لها همة أكبرا !
طريق العلا أبداً للأمام … فويحك هل ترجع القهقرى ؟
وكل البرية فى يقظة … فويل لمن يستطيب الكري !

كن جميلا تر الوجود جميلا

للاستاذ ايليا أبو ماضي

أيهذا الشاكى وما بك داء … كيف تغدو اذا غدوت عليلا
ان شر الجناة فى الأرض نفس … تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك فى الورود وتعمي … ان ترى فوقها الندى اكليلا
هو عبء علي الحياة ثقيل … من يظن الحياة عبئا ثقيلا
والذى نفسه بغير جمال … لا يرى فى الوجود شيئا جميلا
ليس اشقى ممن يرى العيش مرا … ويظن اللذات فيه فضولا
أحكم الناس فى الحياة أناس … عللوها فاحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه … لا تخف أن يزول حتى يزولا
واذا ما أظل رأسك هم … قصر البحث فيه كى لا يطولا
أدركت كنهها طيور الروابى … فمن العار أن تظل جهولا
ماتراها والحقل ملك سواها … تخذت فيه مسرحا ومقيلا
تتغني والصقر قد ملك الجو … وعليها والصائدون السبيلا
تتغنى وعمرها بعض عام … أفتبكي وقد تعيش طويلا
تتغنى وقد رأت بعضها يؤ … خذ حياً والبعض يقضى قتيلا
فهى فوق الغصون فى الفجر تتلو … سور الوجد والهوى ترتيلا
وهى طورا على الثرى واقعات … تلقط الحب أو تجر الذيولا
كلما أمسك الغصون نسيم … صفقت للغصون حتى تميلا
فاذا ذهب الاصيل الروابى … وقفت فوقها تناجى الاصيلا
فاطلب اللهو مثلما تطلب الا … طيار عند الهجير ظلا ظليلا
وتعلم حب الطبيعة منها … واترك القال للورى والقيلا
فالذى يتقى العواذل يلقى … كل حين فى كل شخص عذولا

***

أنت للأرض أولا وأخيراً … كنت ملكا أو كنت عبدا ذليلا
كل نجم الى الافول ، ولكن … آفة النجم ان يخاف الافولا
غاية الورد فى الرياض ذبول … كن حكيما واسبق اليه الذبولا
واذا ما وجدت فى الارض ظلا … فتفيأ به الى أن يحولا
وتوقع اذا السماء اكفهرت … مطرا فى السهول يحيي السهولا
قل لقوم يستنزفون المآقى … هل شفيتم من البكاء غليلا
ما أتينا الى الحياة لنشقى … فاريحوا أهل العقول العقولا
كل من يجمع الهموم عليه … أخذته الهموم أخذاً وبيلا

***

كن هزارا فى عشه يتغنى … ومع الكبل لا يبالي الكبولا
لا غرابا يطارد الدود فى الارض … وبوما فى الليل يبكي الطلولا

***

كن غديرا يسير فى الارض رقرا … قا فيسقى عن جانبيه الحقولا
تستحم النجوم فيه ، ويلقى … كل شخص وكل شيء مثيلا
لا وعاء يقيد الماء حتى … تستحيل المياه فيه وحولا

***

كن مع الفجر نسمة توسع الاز … هار شما وتارة تقبيلا
لا سموما من السوافى اللواتى … تملأ الارض في الظلام عويلا
ومع الليل كوكبا يؤنس الغا … بات والنهر والربى والسهولا
لا دجى يكره العوالم والنا … س فيلقى على الجميع سدولا

***

أيهذا الشاكى وما بك داء … كن جميلا ترى الوجود جميلا



الادب الفارسى والادب العربى

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأستاذ بكلية الآداب

— ١ —

أمة ذات حضارة فاتت التاريخ اوليتها ، ونظم أمرها الحقب الطويلة يقوم عليها ملوك مسلطون رفعوا الى مستوى فوق البشر أقدامهم ، وأقر لهم بهذا رعاياهم ، وقد طار صيتهم فى الآفاق فملأ جيرانهم رهبة وا كبارا . أمة ذات دين نصر الملوك ونصروه فاشتد قوامه على كل مخالف وارهبوا كل متبوع . نزلت هذه الأمة أرضا وسطا بين مهد الآريين والساميين يجاورها فى الغرب بابل وأشور ، ويصاقبها فى الشرق الهند . ثم يتصل بها من الشمال والشمال الشرقى الترك والصين . فاض بها سلطانها حتى غزت اليونان فى عقردارهم ، وغزت كثيرا من أوروبا الشرقية الجنوبية . وملكت الشام وفلسطين ومصر . وكانت الحرب من بعد سجالا بينها وبين الروم . كانت بلادها طريقا للتجارة بين الشرق والغرب . وموصلا بين حضارتيهما . وكانت موئلا للفلسفة اليونانية . وملجأ للعائذين من فلاسفة اليونان . تلكم أمة الفرس التى يقول فيها مهيار :

قومى استولوا على الدهر فتى   ومشوا فوق رءوس الحقب !

عمموا بالشمس هاماتهم   وبنوا أبياتهم بالشهب !

وأخري من الأمم عريقة في البداوة وأبية على كل عسف ، حديثة عهد بالخضوع حتى لسلطان الله ، أنضجتها البداوة فاذا هى قوة نشيطة ذكية متوقدة ، وأورثها معيشتها وحروبها ضروبا من العزة والشجاعة والفروسية والصبر على المكاره ، والقناعة بالقليل ، وجمع كلها وأنار قلوبها الدين ، وتلكم هى أمة العرب .

— ٢ —

بينا كان الاسلام يجمع شمل العرب كان الفرس مسيطرين على عرب الحيرة يتخذونهم عونا على الاعراب ، وعلى الرومان — كما كان الرومان يستعينون بالغساسنة في الشام — وكان الفرس كذلك مسيطرين فى اليمن والبحرين . وقد أعظم العرب شأنهم فهابوهم وسموهم الاسد ، وسموا قبائل ربيعة التى كانت تجاور الفرس وتأبى عليهم أحياناً — ربيعة الاسد من أجل ذلك — وعرفوا من أخبارهم وعاداتهم ما جعلوه مضرب المثل ، وعرفوا كذلك دينهم حتى يقال إن من بنى تميم من كان يعبد النار . وفى ذكر القرآن للمجوس كثيراً دلالة على هذا .

فلما استقام للعرب أمرهم خلص اليمن بغير عناء وأسلم الفرس هناك ، حتى قاتلوا مع المسلمين الاسود العنسي المتنبيء ، وكذلك أجلى عامل كسرى على البحرين أيام أبي بكر ، وأسلم هناك من أسلم ودفع الجزية من بقي علي دينه . ثم عادي بالمسلمين الفتح فاذا هم يقاتلون فى جهات العراق عربا وفرساً قد تخالطوا حتى لم يتميز بعضهم من بعض وحتى كان العرب بدأ مع الفرس على العرب إبان الفتح فخالد بن الوليد يقول لأهل الحيرة : أعرب أنتم فما تنقمون من العرب ؟ فيحتجون لعربيتهم بأنهم ليس لهم لسان غير العربية ، تنافل المسلمون فى فتح بعد آخر ، صلحاً وحرباً فاذا هم ينازلون الاكاسرة أنفسهم ، وأيقن الفرس أن الامر جد لاهزل ، وكان قد اجتمع امرهم بعد الفرقة ليزدجرد الساس فساقوا على العرب جيشاً حشدوا فيه من عدد الحرب وجندها مالا عهد للعرب به ، ولم يكن بد للعرب من المقاومة فاستنجدوا الخليفة عمر فأهمته حرب فارس ، وندب الناس اليها فتثاقلوا اعظاما لأمر الفرس واستفز عمر العصبية العربية ؛ ورضى أن يدعى الى الحرب مسلمهم وغير مسلمهم . وقد اهتم الفرس بأمر القادسية أيما اهتمام ، وارتقب العرب عقباها من العذيب الى عدن أبين ومن الابلة الى ايلة — كما يقول الطبرى

وكانت القادسية أول موقعة عظيمة حشد لها الجمعان مااستطاعوا ، ولكنها لم تكن أعظم الوقائع ولا آخرها فموقعة نهاوند التي سماها العرب فتح الفتوح ، وهى آخر الوقائع العظيمة ، كانت بعد القادسية بسبع سنين ، وبينهما وقائع ، وكان ملك الفرس يزدجرد ، لايزال يكر على العرب فى الحين بعد الحين ، ويستمد الترك وقد تعقبه العرب الى أقصى الشرق ، واستمر على ذلك حتى سنة ٣١ . سبعة عشر عاما بعد القادسية فبينا يتهيأ لصلح العرب علي بعض الاقاليم قتله بعض اتباعه كما قتل دارا من قبل . وبينما يتعقبه الاسكندر المقدوني . وبذلك تم للعرب الاستيلاء على فارس رغم الثورات التى كانت تظهر فى الحين بعد الحين الا جهات فى طبرستان وجيلان لم تفتح الا بعد قرنين وبقي بعد ذلك امراء فى جهات نائية قرونا طويلة .

— ٣ —

فتح العرب الاقطار باسم الدين فلم يكن الا أن يسلم الفارسى فاذا هو واحد من المسلمين الفاتحين ، ثم كان حكمهم على رغم مصائب الحروب وفظائعها عدلا لا عنف فيه . وكان فى الفرس على هذا من وجدوا فى الفتح الاسلامي مخلصا من اضطهاد دينى ، فقد كانت الزردشتية شديدة على من شذ عنها ، أو وسيلة الى جاه ...

فالديلم من جند الفرس انحازوا للمسلمين (بعد القادسية وأسلموا) وعاونوا فى واقعة جلولاء ، ثم استوطنوا الكوفة . ونجد من الفرس مثل (ابى الفرخان) الذى عاون العرب فى فتح الرى فولى عليها . ونجد مرزبان مرو يخذل يزدجرد ويرسل أمواله بعد ان قتل الى أمير العرب هناك .

وقد أعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم وفرض عمر فى العطاء لمثل المرزبان فى المدينة وأحسن العرب الى الفلاحين الذين لم يقاتلوا . ويقول الطبرى (عن أهل فارس) وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا فى زمن الاكاسرة فكانوا كأنما هم فى ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا. وقد بقى الفرس أحراراً فى دينهم وبقيت معابد النار فى الجهات كلها ولا سيما فى فارس . فقد حكى المؤرخون كالاصطخري وابن حوقل انه لاتوجد قرية فى فارس بغير معبد للنار ، وان جمهور أهلها من عبدة النار وانهم فى شيراز لا يمتازون من المسلمين فى مظاهرهم وكانت معابد النار تحمى ويعاقب مخربوها .

واما تناقص عدد الزردشتيين بدخول كثير منهم فى الاسلام ، وقد دخلوا فيه أفواجا حتى شكا عامل خراسان الى عمر بن عبد العزيز قلة الجزية فأرسل اليه إن الله بعث محمدا صلعم هاديا ولم يبعثه جابيا . على انهم بقوا كثيرين الى عصر قريب . ويقول Khonikof أن كرمان حين حاصرها محمد خان قاجار كان فيها ١٢ الف أسرة زردشتيه

انما افيض فى هذا لأبين أن العرب والفرس بعد الفتح لم يكونوا فى نضال مستمر . وان العرب لم يستعبدوا الفرس كما يحسب بعض الناس . لم يفعل العرب الا ان حطموا الحدود الوطنية فشاركوا الفرس فى جماعة اوسع . ونالوا من العلوم والآداب التى تعاونت عليها الامم الأسلامية ، ونالوا عليا المناصب . فالبرامكة مثلا كانوا يدبرون للعباسيين ملكا أعظم وأوسع مما كان يدبره بزرجمهر لانوشروان .

— ٤ —

الآداب الفارسية الحديثة تؤرخ من القرن الرابع الهجري (تقريباً) — كما يأتى — فماذا أصاب اللغة الفارسية فى ثلاثة القرون التى تلت الفتح الاسلامى ؟ وماذا أصاب الفرس في هذه القرون ؟

فى اجابة هذين السؤالين يجب أن نفرق تفريقاً تاماً بين الكلام على الفرس ، والكلام على اللغة الفارسية .

فاما اللغة الفارسية فالكلام عنها من جهتين : من حيث انها لغة تخاطب ومن حيث انها لغة العلم والأدب . فاما من الوجهة العلمية فقد وقفت اللغة وقفة طويلة ، ولم يؤلف فيها الا كتب قليلة معظمها فى الدين ، ويمكن ان يقال انها عقمت تماماً بعد قرنين من ظهور الاسلام ، فالكتب التى ألفت فى العصر الاسلامي وبقيت على الزمن لاتتجاوز عصر المأمون، وهى كتب دينية قليلة أراد بها الزردشتيون الدفاع عن دينهم والابقاء عليه — ولكن كان للغة الفهلوية عمل اعظم من هذا وأبقى أثراً هو حفظها آداب الساسانيين . وتاريخهم فى كتبها لتكون مصدراً للترجمة الى اللغة العربية ، ولتكون من بعد أساساً للآداب الفارسية الحديثة فقد بذل رجال الدين أو الموابذة وملاك الأراضى أى الدهاقين جهدهم فى حفظ كتبهم ، وكان الساسانيون من قبل ذوى عناية بالكتب وحفظها . ويمتاز اقليمان فى ايران بأن كانا موئل الآثار الفارسية : فارس وخراسان — كما امتازت طبرستان بوعورة ارضها وكثرة غاباتها فبقى فيها استقلال الفرس مدة طويلة — فاما خراسان فكانت مبعث الشعر الفارسى الحديث ، واما فارس مهد الدول الفارسية القديمة فقد لاذ بجبالها جماعات من الزردشتيين .فعكفوا على درس آدابهم القديمة وحفظ كتبها فحصن شيز فى جهة ارجان كان مسكن مجوس خبراء بايران وتاريخها . وكان به صور الملوك والعظماء وتاريخهم ، هكذا يقول الاصخرى وابن حوقل ، ويؤيد هذا مايقوله المسعودي : انه رأي فى اصطخر عند اسرة فارسية كبيرة كتاب الملوك يتضمن صور الملوك وأزمنتهم ووصف آثارهم . ويتصل بهذا ما رواه صاحب الفهرست عن أبى معشر ان الفرس القدماء خزنوا كثيرا من كتبهم فى اصفهان فى بناء عظيم بقى الى زمان ابى معشر ، وان الناس عثروا على كتب فيه ، ثم يقول ابن النديم « اخبرنى الثقة أنه انهار سنة ٣٥٠ أزج آخر عن كتب كثيرة لايهتدي الى قراءتها . والذى رأيناه بالمشاهدة ان أبا الفضل ابن العميد أرسل هاهنا فى سنة نيف وأربعين كتباً متقطعة أصيبت باصفهان فى سور المدينة وكانت باليونانية ألخ

ففى أمثال حصن شيز وبناء اصفهان حفظت الكتب القديمة التى ترجمت الى العربية أيام الدولة العباسيه .

« لها بقية »

« بقية المنشور على صفحة ١٣ »

ياشبان الشرق — هأنتم أولاء تطالعكم قوى التجديد من حيث تخشون عناصر الجمود ؛ وهاهو ذا الاسلام الدين الحى يدفعكم دفعا الى مسايرة نواميس الكون ؛ ومجاراة نظم الجمعات الانسانية ؛ وهذا تاريخكم المجيد يغذى حاضركم الحديث فلا عذر اليوم لكم اذا لم تبعث تلك العزمات لتسمع الدهر صوتاً طالما أصغى اليه أزمانا وحمدا له فسار ؛ ومضى حيث صرفه واحكم فيه

يا شباب مصر : ها كم ماضيا مجيدا فى الصدارة والزعامة ، لم يدع ميدانا الا حله وها هى ذى مصركم معلمة الدنيا قد أنهت الیكم لواء هذه الزعامة وقد بايعها الشرق وعرف مكانها وعاندها الغرب وجحد حقها . والحياة العاملة اليوم انما تكتب للامة الصناع والشعب الدءوب فلابد أن تتصدر مصركم ماتصدرت من سائر الميادين قديما وسيبنى ثبات شبابها بمشروعهم العملى صروحا سامقة من القوة المادية تشهد أن الذين عرف أسلافهم كيف يحنون الفلسفة ويعمرون العلم ويذودون عن الاديان يعرفون هم جيدا كيف يؤصلون الصناعة على أساس أبقى على الدهر من الدهر



حزن اولمبيو

لفيكتور هوجو

ترجمة ابن عبد الملك

لم تكن الحقول غبراء ، ولا السماء كدراء حين أقبل يقضي ذمام هذه الربوع التي سال فى ثراها قلبه الجريح المثخن وانما كان ضوء النهار يتألق فى أفق لازوردى غير محدود ، ويتدفق على بساط من أديم الارض ممدود . وكانت النسائم عابقة بالعطور ،والمروج حافلة بالخضرة والزهور .

***

وكان الخريف طلق الجوانب ، والسماء مذهبة الحواشي ، والربى حانية الخمائل المونقة على السهل وقد ضربت فى خضرتها صفرة قليلة .

والطيور هائمة بأغاريدها الشجية القدسية ووجوهها الى الله الذى ينم عليه كل كائن، ويسبح بحمده كل شيء، كأنما كانت تقول له شيئا عن الانسان !!

أراد الولهان أن يرى كل شيء : يرى الغدير الطامى الذى يصطفق بجانب العين ، والطلل البالى الذى استنفد ما في كيسهما بالصدقة ، وسرحة الدردار العتيقة المموجة وخلوات الحب فى أجواف الغاب المترامية ، والشجرة التى استغرقا تحتها فى القبلات فذهلا عن كل شيء .

بحث عن الحديقة والبيت المنعزل والبستان الخادر ، والدرابزون الذى يغيب البصر من خلاله فى ممشى منحرف . وكان يمشي منكسر الوجه من الحزن، شاحب اللون كثير الهم فيرى واأسفاه لدي كل شجرة شبح الايام الخوالي يقوم منتصبا على وقع خطاه المتئدة الثقيلة ! .

***

تجول طول النهار علي طول المسيل وقد ملك اعجابه وجه السماء الضاحك ، ومرآة البحيرة المصقولة .

ثم قيد بصره مارعاه من صور الطبيعة فى الحقول ، فتأملها مليا ثم ذهب مع احلامه حتى المساء .

تجول طيلة النهار ذاكرا والمنى علبه بخاطره اللذيذة ناظرا من اعالى السوج دون أن يجرؤ على الولوج كأنه صعلوك من صعاليك الهند .

فلما آذنت الشمس بالمغيب احس فى صدره وحشة القبر وفى قلبه لوعة الهم ، فجأر بالشكوى وهتف بالنجوى يقول :

***

أيها الالم ! لقد اردت انا المشترك الخاطر المسعور الفؤاد ان أعلم هل الاناء لا يزال محتفظا بالسائل ؟ وان أرى ماذا فعل هذا الوادى السعيد بما خلفت فيه من قلبي ؟ .

ما اقدر الزمن اليسير على ان يغير كل شيء !

ايه ايتها الطبيعة ذات الوجه الضاحك والجبين الاغر ! ما اسرع ماتنسين ! وما أشد ما تقطعين العلائق الخفية التى تربط قلوبنا بكثرة استحالاتك وتغير حالاتك ! .

***

ان غرفنا التى اتخذناها من ورق الشجر الألف قد تهدمت .

والشجرة التى حفرنا عليها اسمينا قد ماتت أو تحطمت

وورودنا النابتة فى الحظيرة قد عبثت بها ايدى الاطفال الذين يقفزون فوق الحفرة!

والعين التى كانت تشرب منها ساعة القيظ وهى هابطة من الغاب قد قام على موردها جدار ! !

لله ما كان أجمل يدها حين كانت تغترف بها الماء ثم تدعه يتساقط من خلال أصابعها كنثير اللؤلؤ الرطب ! !

***

لقد رصفوا الطريق الغليظ الوعر الذى كنا نسير فيه جنبا الي جنب فترتسم على رمله النقي قدمانا ، ويكون أثر قدمك الرقيقة الانيقة بجانب قدمى سخرية حسناء ، وضحكة استهزاء ! !

***

والحاجز الحجري الذى قام على حد الطريق حقبة طويلة ذلك الحاجز الذي كان يحلو لها أن تجلس فوقه فى انتظارى قد هد ركنه اصطدام المجلات الموقرة بالاعباء ، وهى آيبة تئن فى المساء ! !

***

والغابة أصبحت حطاما هنا وبقيت أدواحها هناك ! ولم يكد يبقى من كل ما حللناه وتقمصناه شيء حي !

وأكداس الذكريات تبددها الرياح الأربع ككومة من التراب الخامد البارد قد ألوت بها الريح الدبور ! !

واويلتاه ! ألم يعد لنا اذن وجود ؟ هل مضت مدتنا وانقضت تنا ؟ أما يرجعها الى صرخاتنا الضارعة الضائعة شيء ؟ النسيم يداعب الغصون وأنا أبكي ! ومنزلي ينظر اليّ ولا يعرفني!

***

والآن سيمر غيرنا من حيث مررنا ، وسيرد آخرون هـذا وردالذي عنه صدرنا ، والحلم التي بدأناه سيواصلون رؤياه ،ولـكنهم لنا لا يستطيعون أن يبلغوا مداه !

***

وذلك لأن الناس في هذه الحياة لا يتممون ولا يكلمون،سواء في ذلك لجيئون والطيبون

وسيستيقظون جميعا في مكان واحد من الحلم ، اذ كلهم يبدأون هذا العالم ثم يتممون في غيره

***

أجل ستأتي نوبة آخرين، فينعمون في ظلال هذا السكن الساكن من الفاتن بما وهبت الطبيعة للحب من خيال وجلال ولذة !

***

وسيرث غيرنا حقولنا وطرقاتنا وخلواتنا،ويستولى من لاتعرفين ى غابتك يا حبيبتي ! ويتبل بعض النسوة الموج الى هذا الماء يبتردن ، فيكدرن غمره الذي لمسته قدماك العاريتان فتقدس !

***

يالله ! اذن ذهب الحب الذي أحييناه في هذا المكان باطلا ! ولم ق لنا شيء من هذه الربوات المزهرة التي امتزج فيها لمبانا فانصهر ما جسمانا واتحد قلبانا

هيهات قد استرجعته الطبيعة التي لا ترحم ولا تألم !

***

بالله نبئني ايتها المسايل المرعة ، والجداول المترعة، والعرائش رقرة بالعناقيد ، والاغصان المثقلة بالاعشاش والاغاريد ! وخبرني بها المغائر والآجام والادغال ! هل تطربن قلباً غير قلبنا بهذه الاغاني، ناغين حباً غير حبنا بهذه الاناشيد ؟

***

لقد كنا ندرك مرامي كلامك ، ونجعل مشاعرنا كلها اصداء جع انغامك ، ونرهف اسماعنا لالتقاط ما يبدو احياناً من بليغ رك . دون أن نميط الحجاب عن خبيئة سرك !

***

ايتها الطبيعة المجلوة في هذا الخلاء الجميل !

متى رقدت انا وهي تحت صفائح القبر فهل تظلين جامدة أمام تنا وموت حبنا ، توالين حفلاتك واعيادك ، وتواصلين بسماتك نشادك ؟

الا تقولين لطيفينا اذا ما رأيتهما يجولان بين رباك وخلواتك ، وفيما الفا من جبالك وغاباتك ، ما يقوله جميع الاصدقاء لاخوانهم القدماء من سرائر القلب ونجاوى الضمير ؟

***

هل تستطيعين أن ترى دون أن يلوعك الحزن ويرمضك الاسى شبحينا يطوفان بمواقع خطواتنا ، ومواضع خلواتنا ، وان تريها تقودني في عناق مكتئب الى ينبوع منتحب يئن في خفوت وهمس ؟

***

واذا ما لجأ عاشقان الى جوارك، واختفيا عن العواذل تحت ستارك، وخبآ سرورهما بين ازهارك، فهل تسرين اليهما هذه الـكلمة :

« أيها الراتعان في رياض الحياة ! اذكرا من طوح بهما الدهر في قفار الموت ! »

***

لعمرك ما هذه المروج والعيون والغابات والسموات والبحيرات والسهول والحزون الا عارة مستردة ! يعيرنا الله اياها لحظة من الزمن لنضع فيها قلوبنا وأحلامنا وغرامنا ثم يستردها .

***

ثم يطفيء بعـد ذلك سراجنا ، ويدفن في حلك الليل شعاعنا . ثم يوحي الى الوادي الذي انطبعت فيه صورنا ونفوسنا أن يطمس آثارنا، ويمحو أسماءنا وأخبارنا .

***

لا بأس ! ! انسينا أيتها الدار ! واسكرينا أيتها الحديقة! ولاتذكرينا ياظلال ! واحتل عتبتنا ياعشب ! وغط آثار قدمينا ياوسخ ! وغردي أيتها الطيور ! وتدفقي أيتها الجداول . وتكاثري أيتها الأوراق . فان الذين طويتم صحيفة ذكرهما لا ينسيان !

وكيف ننسى وأنتم خيال الحب نفسه ! أنتم الواحة التي يلاقيها المسافر في وقدة الصحراء ، والخلوة العظمى التي بكينا بها أحر بكاء ، وكل منا يده في يد الآخر !

***

كل الاهواء تمضي مع العمر . بعضها يحمل نقابه وبعضها يحمل مديته كدبر النحل (١) يسافر جذلان شاديا وجماعتـه تضمحل وتذل وراء الاكمة .

***

الا اياك أيها الحب فلا شيء يمحوك ! انت السحر وانت الفتنة ! وسواء أكنت مشعالا بدويا أم مصباحا حضريا فأنت الذي تشرق في العيون وبين الضلوع، وتستولي علينا بالبسمات وخاصة بالدموع! ان الناس في الشباب يلعنونك ، ولـكنهم في المشيب يعبدونك !

(١) دبر النحل افواجه

بيت الراعي

للشاعر الفرنسي الفريد دفنى

— ٢ —

—١—

أيها الشعر[1] أيها الكنز . ياجوهرة العقل . ان عواصف القلب كزوابع البحر لن تستطيع أن تعوق رداءك المتعدد الصبغة عن أن يجمع ألوانه ، لكن ما ان يراك السوقة وانت تلع فوق جبهة نبيلة حتى تضطرب حواسهم لبريق سناك الناصل في أعينهم ، الغامض على افهامهم ، فتنطلق ألسنتهم بالنيل منك وقلوبهم تكاد تنخلع من الهلع .

—٢—

انما يخشى حماسة الالهام[2] ضعاف النفوس . أولئك الذين لا يقوون على الاستقلال بعبثه والصبر على لظاه . وفيم تنكبه[3] والحياة تضاعفها نيران العاطفة ولكم من قبس الاهى تصيبنا ناره من حين الى حين . تلك هي الشمس وهو الحب وهي الحياة ومع ذلك فهل من أحد يود ان تنطفيء نارها . اننا نعتز بها ونحن ساخطون عليها .

—٣—

لقد استحقت إلهة الشعر[4] ابتسامات التهكم وأمارات الاستهتار التي يستثيرها مرآها منذ أن اتجهت يعصرها الى العاهرين فاضطرب مقالها ونزل صدقها منزل الشك وحرم عليها ان تلم الحكمة وأصبحت اليوم اذا صاحت بعابري الطريق ان أفسحوا أفسح لها السائر فى غير هيبة ولا احترام

—٤—

يالك من فتاة لاعفة لها . ياليتك صنت وقارك يا سليلة ارفيوس . اذا ما كنت تذهبين الي حيث لايليق بك الى الشوارع وملتقى الطرق تنشدين الاغانى بصوتك المختنق المتهدج . اذا ما كنت تلصقين بجانب فمك باقة الشعر اللاذعة كالذبابة ، وبجانب عينك الزرقاء معنى الرمز المستهتر .

—٥—

لقد سقطت منذ حداثتك . ففى اليونان اسكرك عجوز[5] بقبلته وكان أول من خلع عنك ثوب كهنوتك ثم أجلسك على فخذيه بين جماعة الشبان ، ولايزال على جبينك آثار من عض قبلاته ! وفي ولائم هوراس كنت تغنين وأنت تثملين بالشراب، وجاء فولتير فقادك الى البلاط تحت أبصارنا جميعا .

—٦—

يالك من قسيسة[6] خبت نارها . هاهم أعظم الناس خطرا لايضعون على جباههم من تاجك الا بعضه . هاهم تقف أقدامهم وكأنما يتعثرون في خطاياك حتى أنه لمن الاهانة لاحدهم الا يكون الا شاعرا . ينثرون أفكارهم مع رياح المنصة فتدور بها عمياء كالقدر ثم تحملها الى غير مستقر .

—٧—

متكبرون متعالون في مواقفهم الكاذبة وان مادت الارض تحت أقدام أولئك التريبون[7] خطبهم الفانية تتملق الجماهير التى تلتف حولهم وتصفق لعباراتهم وتلك الجماهير الذين يتجددون باستمرار فى هذه المسارب الضيقة . هؤلاء النظارة لايحملون لأولئك الممثلين السياسيين الا ازهارا لا رائحة لها وما لها من غ... فى أغلب الأحيان .

—٨—

افقهم تحده جدران صالتهم حيث يقومون بألعابهم الكاذبة والشعب يسمع عن بعد ضوضاء مجادلاتهم ولكنه لاينظر الى تلك الالعاب الا كما ينظر أبناؤه ونساؤه مضطربين الى ذلك الحدث العجب . آلة البخار ذات المائة ذراع .

—٩—

تري الفلاح المتم يسخط عند ما يوقف محراثه ويترك فلاحته لينتخب ومع ذلك هاهو أحد محامي اليوم قد استقر فى أعماق نفسه احتقار ما نصيبه الخلود . ذلك المحامى الذى يشك فى خلود النفس

---

(١) فى هذا الجزء من القصيدة يتكلم الشاعر عن الشعر ويتطرق الى هجاء المجالس النيابية وهو فى ذلك ربما كان متأثرا بسقوطه المتوالى فى الانتخابات كما أنه يحقد على لامارتين وهيجو عندما تركا الشعر احتقارا لامره ليندمجا فى سلك السياسة . يتخذ الشاعر جانب الشعر ليدافع عنه معارضا بينه وبين الخطب السياسية التى تفنى بفناء ساعة القائها .

(٢) يقصد بحماسة الالهام حماسة الشعر .

(٣) أى تنكب الالهام أى الشعر .

(٤) وضعنا آلهة الشعر ونحن نفضل فى الحقيقة أن ننقل كلمة الميز Muse كما هى لان هذا اللفظ من جهة شبه أممى ومن جهة أخرى متصل وله مدلول تاريخى لايؤديه قولنا آلهة الشعر وما علينا الا نقله عن اليونان كما نقله غيرنا من الأمم .

(٥) يقصد به الشاعر هوميروس .

(٦) اللفظ الفرنسى Vestale وباللاتينية Vestales وهو مشتق من Vesta الهة النار عند الرومان فال Vestala هى قسيسة تلك الالهة وكان أولئك القسيسات يخترن من بين الاطفال الذين لا يقل سنهم عن السادسة ولا يزيد عن العاشرة وتوكل اليهن طول حياتهن حماية النار المقدسة فى كل عائلة فاذا انطفأت منها النار جلدوها وان خانت عفتها اعدموها ولا شك ان لفظ قسيسة لايحمل هذه المعانى كلفظ Vestala الذى له أصل اشتقاق معروف كما له معنى تاريخى .

(٧) يشبه الشاعر نواب فرنسا « بالتريبون الرومانى » من حيث ان كلا عزل الشعب وفينى شاعرنا معروف بكرهه للحكم النيابى وهو ارستقراطى الاصل أو من الاشراف يفضل دائما الحكم الملكى ويدافع عن حقوق الملوك كما يظهر ذلك بوضوح فى قصيدته النبوءت Las Aracles حيث يشبه الدساتير بالرمال التى تنهار تحت من يتكىء عليها .



بين الكاس والطاس

بقلم الدكتور احمد زكى
أستاذ الكيمياء بكلية العلوم

الخمر قديمة كالانسان ، خلقها من خلق الهم ، وأبدعها من أبدع الحس ، وأرادها أن تبقى على الدهور والاحقاب من أراد ألا يكون الكون خيرا كله ولا شرا كله

الخمر لا وطن لها لأن الأرض وطنها ، عرفها المصرى والفينيق ، والاغريق والرومانى ، ويعرفها التركى والالمانى ، والفرنسى والامريكى ، والخمر لا دين لها فقد اعتنقت جميع الاديان ؛ عصرها كهان المجوس ، وباركها أحبار اليهود ، واتخذها يسوع رمزاً لدمه فعتقها من بعده القسيسون والرهبان ، وحرمها الاسلام فاستحلها الخلفاء لما صارت الخلافة ملكا عضوضا . لم يحل لهم أنس الا بها ولم يطب نغم الا عليها ولا لذ غزل الا فى دبيبها ونشوتها

والخمر لا مدنية لها فقد عرفتها كل المدنيات ، عرفتها ابان اشراقها ونشأتها وازدادت بها علوا وهى فى كبد سمائها وأوج صولتها ، ثم غربت على الا كثر فيها كما تغرب الشمس فى لجة البحر المحيط . كذلك شربها المدنى فى كؤوس من ذهب بين عمد المرمر وعلى رنين القيثار ، وشربها الوحشى حيث لا كأس غير صحاف القرع ولا عمد غير غاب الغيل ، ولا رنين غير زمر القصب وقرع الطبول

وجاءت المدنية الحاضرة بعلمها وعددها ، وبطبها واحصائها وبتجاريبها فى الافراد وتجاريبها فى الجماهير ، وخرجت على أن لعنة الناس فى الخمر وخسرهم فى ذوب الرحيق . وتكونت فى كل أمة أمة تدعو الى السبيل الجديدة وتبشر بالرسالة الجديدة باسم العلم وباسم الاقتصاد فى قوى العمال لزيادة الانتاج . وزادت الدعاية حتى أن أمة من أكبر الأمم عددا واكثرها عدة وأحدثها حضارة صوت ناخبوها بتحريم الخمر ، فصدر القانون بطلاق بنت الحان ، فأغلقت الخمائر واهدرت الدنان ، وحاطوا امريكا بسياج ثقيل من عسس يمنع الداء أن يدخل ، والداء بالجسم دفين ، والجسم قد يعتل من جرثومة تغزوه ولكن أكثر علته من جرثومة للموت ولدت فيه . وما هى الا سنة فأخرى حتى سالت الخمر فى امريكا سيلان الماء فيها ، سدت عليها منافذ الماء ، ومهابط السماء ، فتفجرت كالزيت من منابع فى أرضها ، فى عقود ديارها ، فمبها الناس اغترافا ، وعبها رجال القانون معهم ؛ ومتى أبطل مداد الاوراق ماجرى به مداد الاعراق ؟ ولما أصبح القانون ، ذلك الشيخ الوقور المهاب ، يصفع فى السر أقل ويصفع فى الجهر أكثر جاء منتخبوهم منذ اسابيع فرحموا الشيخ فعقروه ، وهكذا عادت الخمر الشيخة تتهادى الى عرشها ، فما استقرت فيه نظرت للانسان فابتسمت وكان من ورائها الاجيال فابتسمن أيضا

وبعد فما الخمر الا الكحول ، وهو ماء ولا ماء ، ماء فى مظهره ونار فى مخبره ، وقد اتخذ أشكالا عدة ، وأسماء عدة فأسموه البيرة وأسموه النبيذ وأسموه الوسكى وكل هذه تحويه ان قليلا أو كثيرا وهى تفقد أسماءها بفقده ، ومن السخف ما يباع أحيانا بانه بيرة لا كحول فيها . والبيرة تنتج من تخمير الشعير وبها ما بين ٤ الى ١٠ فى المائة من الكحول ومقدار لا بأس به من أجسام صلبة ذائبة شبه السكر نتجت من تحلل النشاء الذى كان بالشعير . والبيرة المعتادة لونها أصفر وطعمها مرير بسبب عشب يضاف اليها . والنبيذ ينتج من تخمير عصير العنب وبه ما بين ٦ الى ٨ فى المائة من الكحول ولونه أحمر ويتعاطاه الكثير من الفرنجة على الطعام كما يتعاطون الماء . وهناك نوع آخر من النبيذ ويسمى البرط وبه ما بين ١٥ الى ٢٠ فى المائة . وبالانبذة غير الكحول مواد سكرية وحوامض كحامض الطرطير تعطيها طعما ذاعقا . أما حسن طعمها وطيب ريحها اللذان يشيد بهما الشعراء فيرجعان على الاكثر الى اتحادات بين ما بالانبذة من حوامض وما بها من كحولات اذ (تتأستر) هذه بتلك فتنتج مايشبه الزيوت العطرية طعما وطيبا . ويزيد هذا (التأستر) على الزمن ، لذلك تختزن الخمر فلا ترى الشمس أحقابا طوالا قال ابو نواس يتمدحها

عتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم مائلة ثم قصت قصة الأمم

وأما الشمبانيا فهى أخت النبيذ ، فأبوهما الكرم ، الا أن لونها اصفر ، ويرجع هذا الى أنهم يعصرون العنب سريعا فلا يمهلون الصبغة التي بقشرته أن تجري فى العصير فتخمره ، وغير هذا فانهم يختزنون هذا العصير فى ابان تخمره فى زجاجات مقفلة سنتين وثلاثا فينحبس بها غاز الكربون الناشيء من التخمر تحت ضغط كبير ، لذا تفور الشمبانيا عند فتحها ، ولذا كان طعمها حريفا كالكازوزة بسبب هذا

الغاز ومقدار الكحول الذي بها كالذي بالنبيذ تقريبا

ويوجد عدا هذه من الاشربة الروحية أنواع لاحصر لها يختلف مقدار الكحول الذي بها اختلافا كبيرا ، ومن ذلك الوسكي ويحضر من تخمير الحبوب ثم تقطيرها ، والكونياك ويحضر بتقطير النبيذ ولذلك ترتفع نسبة الكحول بكليهما الى ٣٠ و٦٠ في المائة . ومن الناس من يتخذ من كحول الحريق شرابا وهو يحتوي نحوا من ٩٠ في المائة من الكحول الخالص ويضيفون اليه أصباغا وزيوتا تجعله غير سائغ في الحلق، ولكن حلوق الجهال من الفقراء يسوغ فيها كل كريه مرير

ويشرب المرء الخمر كائنة ما كانت فتمتص المعدة فالامعاء الكحول الذي بها امتصاصا سريعا فيذهب الى الدم ثم الى كل غشاء من أغشية الجسم فيحترق فيها الى غاز الكربون والماء احتراقا سريعا كذلك ، ولا تبقى منه بالجسم بقية ، فهو ليس بطعام بالمعنى المعروف ويخرج مقدار من الكحول قد يعلو الى ٨ في المائة في البول ومن الرئة في التنفس، لذلك تشم رائحته في الفم . ومن الناس من يسترق الشراب ثم يحسب أن رائحته علقت بأشداقه فيغسل فاه حاسبا أنه قد تستر، ويسير في الناس مطمئنا ورائحته تدفعان بالسر في صوت جهير أبلغ من صوت الشفاه

ويتعاطى الناس الكحول للاثر الذي يكون منه في المخ والأعصاب فأول ما يحدثه نشوة تثور فيها قوى المخ فيشتد الفكر ويحتد الخيال ولكنه فكر ثائر وخيال مضطرب ، وتزول عن الانسان أثناء ذلك الدقة في العمل ويقل ضبطه للامور فتكثر الاخطاء . قام الاستاذ (دلنج) أستاذ فن العقاقير بجامعة ليفربول بتجارب على زوجه فكان يسقيها مقادير مختلفة من الكحول ويملي عليها قطعا تكتبها على الآلة الكاتبة ويعد الاخطاء . وخرج من ذلك على علاقات طريفة بين مقادير الكحول وبين الاخطاء الناتجة دلت في مجموعها على أنه بالرغم من حدة الذهن وسرعة الالهام تقل قدرة الضبط في الانسان . قيل لشاعر فكه في ذلك فقال : اذن لا بأس علي من الخمر ، استوحى بها في الليل ، وأصحح اخطاء الوحي بالنهار . ولعل من أجل هذا أن من الشعراء والكتاب من كان لا يكتب الا اذا شرب ، وذلك مشهور عن الكاتب الانجليزي المعروف شارلس دكنز، فقد كان لا يكاد يستفيق، كان كالشمعة يضيء للناس وهو يحترق . وتعقب دائما فترة الايحاء هذه فترة خمود عميق يكل فيها الذهن وتتثلم الحواس

وفعل الخمر بالعواطف يناهض فعلها بالعقل ، فمن الناس من يخف به الفرح حتى ليذهب بوقاره ، ومنهم من تأتيه الكآبة فلا يكاد يحبس دمعه ، ومنهم من يرتاع فيهلع قلبه خوفا وفرقا ، ومنهم من يتشجع فيغفل عن عواقب الأمور . ومن المثل الاخيرة الجراحون فان منهم من لا يستطيع عمل مشرط الا اذا نقع حواسه بنقيع ابنة العنب . ولعل هذا ما حدا الى الجمع بين الخمر وبين كل لذة ولا سيما ما اتصل منها بعاطفة كالغناء والنساء . وهو الذي جمع كذلك بين الخمر وبين كل كآبة ، فكم من عزيز قوم تجهمت له الحياة في حب أو وشيجة أو مال فلم يطقها ، ولم يطق الموت ، فأمات نفسه حيا بالكاس تتلوها الكؤوس . وقد وجدوا ان المستهلك من الشراب يزيد في الضائقات المالية التي تعتري الامم زيادة كبرى

ولعل أخطر ما في الشراب الافراط فيه حتى تتأصل عادته . يشرب الشارب فيكثر ، ويشرب والمعدة ملأى بالطعام ويشرب وهي خالية فيكون امتصاص الجسم له في الحال الاخيرة أشد وسريانه في الدم أسرع والى المخ اوحى ؛ فتقصر فترة الانتعاش الاولى الى العدم ، وتسرع الحواس فتغيم والبصر فيتغبش فيرى الواحد اثنين ، وتصيت الاذن ويخف الرأس ويضيع الحكم على الامور ويرغو الفريسة ويزبد وتأخذه رغبة في الشجار والتحطيم، ثم يسقط جسدا هامدا في غشية تتعطل فيها قوى المخ جمعاء الا النزر اليسير الذي يكفي لاجراء الدم واخراج الانفاس، ثم يصحو من نوم عميق محموم الجسد مصدع الرأس نافد القوي ، بالاذن رنين لايسكت، وبالقلب وجبة لا تسكن ، فلا يجد خلاصا من تلك الاعراض المؤلمة الا باعادة الجرعة وهي حقا تزيلها وتزيلها سريعا . قال الاعشى

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

ولكنه شفاء لايدوم الا قليلا ، فيأخذ المسكين يتداوى من داء بداء حتى يصبح الشراب عادة أشد تأصلا في اعراقه من تأصل الروح فيها ، وتسوء في هذه الاثناء معدته لان الكحول مهيج شديد لاغشيتها ، ويعتريه فيه التهاب مزمن لا تنفع فيه حيلة الاطباء ، وتتحلل مادة كبده فتتليف أو تتدهن ؛ وتقل مقاومة الجسم عامة للامراض، ولكن أخطر من هذا أن المخ يفسد فيصبح صاحبه في اضطراب دائم ورعشة لا تهدأ ، واذا هو أتاه النوم الماضي فبأحلام مروعة أروع منها احلام اليقظة اذ ترى عينه في الجهرة الجرذان تخرج من الحيطان، والزبانية تختبيء له في كل الاركان، وتسمع أذنه الاحياء المتحركة تسبه والأشياء الجوامد تلعنه ويتسابق جسمه وعقله الى الفناء في منحدر زلق لا تقف الرجل فيه !



على هامش السيرة

حفر زمزم

للدكتور طه حسين

(٢)

لاهم قد لبيت من دعاني — وجئت سعى المسرع العجلان
ثبت اليقين صادق الايمان — يتبعني الحارث غير وان
جذلان لم يحفل بما يعاني — لاهم فلتصدق لنا الاماني
مالي بما لم ترضه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضا يملأ الفضاء من حوله ، نقيا يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الاشياء . وكان كل شيء مستقراً لا يضطرب فيه الا هذا الصوت العريض النقي والا هذه الذراع التي ترتفع بالمعول قوية ثم تهوى بها محتفرة ثم تدعه الى المسحاة فتغرف بها التراب في المكتل ، والا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه ويسمع صوته ويرد عليه رجع هذا الصوت كلما وصل في الدعاء الى هذا البيت .

لاهم فلتصدق لنا الاماني

حتى اذا امتلأ المكتل حمله بذراعيه الضعيفتين وأسرع في شيء من الجهد الى خارج المسجد فألقى ما فيه ثم عاد وأبوه يرفع المعول في الجو ويهبط به الى الارض ويملأ فضاء البيت بصوته النقي العريض والعرق يتصبب على جبينه ولكنه لا يحس جهدا ولا يجد اعياء . وكانت الشمس قد ألقت على الارض رداء من النور نقيا ولكنه ثقيل همد له كل شيء وأوى له الناس الى بيوتهم يقيلون . وانقطعت له الحركة وخفتت الاصوات الا هذه الجنادب التي يروقها وهج الشمس ويسكرها لهب القيظ فتصدح بالغناء اذا سكت كل شيء . وقد أخذ الغلام يحس لذع الجوع وحر الظمأ ولكنه لا يقول شيئا بل لا يكاد يفكر في شيء ، انما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعناؤه للمكتل والتراب ، ونشاطه لأفراغ المكتل اذا امتلأ . وهما في ذلك اذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء يحمل الى الرجل والغلام شيئا من طعام وشراب ، حتى اذا انتهى اليهما وضع ثقله وقال : مولاي هذا غداؤك وغداء الصبي قد أعدته سيدتي العامرية هيئته بيدها وهي تعزم عليك لتصيبن منه ولترفقن بنفسك ولترفهن على هذا الصبي الحدث : لقد قال الناس جميعا وهدأ كل شيء . لهذا الوهج الذي يصهر الابدان ويحرق الجلود وأنت فيما أنت فيه من جد يفني وجهد يهلك لا تقيل ولا تستريح ولا ترع هذا الطفل الذي لم يتعود الجهد والعناء . بعض هذا يبلغك ما تريد . ولكن عبد المطلب لم يسمع للغلام الا باذن معرضة ، ولم يستقبله الا بوجه مشيح ، انما هو ماض في رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعا في الجو وهبوطا الى الأرض ، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه ، ولكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم الى هذه السلة وما فيها . وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه وانصرف الى ما في هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله . ان فيها لشواء غريضا وان فيها للبنا يمازجه عسل هذيل الذي حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام . وان فيها لماء عذبا ومن يدري ؟ لعل سمراء قد نقعت فيه شيئا من زبيب الطائف ، فانها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد المطلب ماض في رجزه وفي حركة يديه بالمعول والمسحاة وقد امتلأ المكتل فيهم الصبي أن يحمله ليلقي ما فيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه في ذلك . ولكن عبد المطلب ينهره نهرا عنيفا « اليك ياغلام فما لهذا الامر الا عبد المطلب وابنه .

ويمضي الصبي بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعودا وهبوطا ، وانما هو مطرق الى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ثم يرفع بصره الى السماء فيطيل رفعه ثم يدير عينه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئا أو أن يلتمس أحدا . ثم يدعو ابنه في صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضى والاشفاق :

« هلم ياحار أنظر أترى ماء ؟ — كلا يا ابت وانما أرى ذهبا وسلاحا ؟ — ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وانما وعدت بالماء أسقي الحجيج : ان وراء هذا الامر لسرا . ولكن هلم يابني فما أرى الا أن الظمأ والجوع قد أجهداك » .

وأقبل الرجل وابنه على السلة فاصابا مما فيها ذاهلين واجمين ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعما وأحسا له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي يتوهج في الحفرة وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقيل . حتى اذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب الى الحفرة فيستخرج مافيها فاذا غزالان من ذهب نقي ثقيل واذا سيوف ودروع . فيكبر ويرفع صوته بالتكبير ويسرع اليه أفراد قليلون كانوا قد بدأوا يفدون الى المسجد كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيظ . فاذا رأوا هذا الكنز دهشوا ثم تصايحوا ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد واذا شباب قريش وشيوخها يقبلون سراعا مزدحمين يسرع بعضهم حب الاستطلاع ويسرع ببعضهم الآخر الطمع في الغنيمة ويسرع بفريق منهم باعث ديني غامض فيه خوف وفيه رجاء وفيه اكبار للآلهة وتوقع

المعجزة الخارقة . حتى اذا توافوا جميعا واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزا وعرفوا حقيقة هذا الكنز وقوموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف ودروع أداروا أمرهم بينهم . لمن يكون الكنز ؟ قال هشام بن المغيرة انما هو لقريش فقد وجد في المسجد وكل ما وجد داخل الحرم في أرض عامة فهو لقريش وقال حرب بن أمية : انما هو لبني عبد مناف خاصة فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته الينا الآلهة وتنازع القوم وطال النزاع واختصم القوم واشتدت الخصومة وعبد المطلب صامت مطرق لا ينطق بكلمة ولا يأتي بحركة . هنالك صاح به حرب : مالك لا تقول وانت الذي وجد الكنز وانت أحقنا بأن ترى رأيك فيه ! . قال عبد المطلب في هدوء وأناة ما ينبغي أن يكون الكنز لأحد حتى نستشير الآلهة فما حفرت ولا ظفرت الا بأمر خفي وما أرى الا أن للآلهة في ذلك ارادة وقدرا لا نبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجمت قريش وغضب بنو عبد مناف وانكروا جميعا في انفسهم أن يشرك عبد المطلب معهم الآلهة في هذا الكنز الدفين . ولكنهم لم يقولوا شيئا وما كان لهم أن يقولوا شيئا ! ومن الذي يستطيع أن يرد قضاء الآلهة ؟ حمل الكنز اذن الى الكعبة وأقبل القوم الى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح وها هو ذا يضرب بقداحه ثم يضرب ثم يضرب بين قريش والكعبة فتخرج القداح للكعبة ثلاثا ويصيح عبد المطلب لقد ظهر قضاء الله فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قريش . . تفرقوا يا بني عبد مناف فليس لأحد منكم في هذا الكنز نصيب . أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة ، وأما هذه السيوف فستعلق عليها ، وأما هذه الدروع فستدخر في خزائنها . ثم التفت الى ابنه وقال هلم ياحارث اتبعني لنمض فيما كنا فيه وتفرقت قريش وفي صدورها غل وحنق . ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحية وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب . ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضا . وأصبح الناس ذات يوم واذا الكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مع المساء الى أهله محزونا مكدودا راضيا مع ذلك لم يفارق قلبه الأمل . فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع اليه ولم تبتسم له . ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت وألح في السؤال . قالت : وبم تريد أن أبتهج ولم تريد أن أبتسم ؟ لقد علمت منذ زفني أبي اليك اني قد تزوجت رجلا لا كالرجال . لقد أحببتك ولكني أنكرتك . لقد أملت فيك ويئست منك . ثم عاد الي الأمل أول أمس ثم ها أنت ذا ترد الى اليأس مظلما حالكا قبيح الوجه بشع المنظر كأنه الغول . ماذا ؟! يلم بك الطائف أربع ليال يهيب بك ويلح عليك رامزا حينا مصرحا حينا مصرا دائما حتى اذا اذا أذعنت لأمره وانتهيت الى ما سبق اليك من خير وادخر لك في الارض من غنى زهدت فيه وانصرفت عنه واشفقت أن تسلمه الى قريش أو الى عبد مناف . فيقال « القى بيده ونزل عن غنيمته فصرفت ذلك عنك رغمهم الى هذه البنية تحليها بالذهب وتعزها بالسلاح ! وماذا تصنع الاحجار القائمة بذهبك وسلاحك ؟! لله أنتم يا معشر قريش !؟ انكم لتكبرون من هذا البناء المنصوب مالا نكبر نحن في البادية ولولا حاجاتنا ومنافعنا لما هبطنا الى بطاحكم هذه حاجين ولا معتمرين ولكنكم قوم ضعاف تكبرون مالا يكبر ويغركم أن أفئدة الناس تهوي اليكم تحسبونهم يقبلون اليكم بالدين وينصرفون عنكم بالطاعة ، وانما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض . وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق .. هلا طاولت قريشا وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح الى ، لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبي الذي تمنيه وتضنيه منذ ألم بك ذلك الطائف . هلا تريثت واصطنعت الاناة اذا لاحتويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالا ولما استطاع بنو عبد شمس ان يكاثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم والدنانير . اذا لأقبلت اليك بنو عامر بقوتها وبأسها فاعزتك ومنعتك من قريش ولكنك أشفقت وملأ قلبك الفرق وعبثت بنفسك بقية من كبرياء فأفقرت نفسك وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بني حرب ثروة ومالا . قال عبد المطلب محزونا : هوني عليك يا سمراء وأقلي اللوم فما أرى انك تفقهين مما ترين شيئا . لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال وما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال . وما أرضى لك وان نسلتك أشراف بني عامر أن تمضي من أمر قريش ان فيكم أهل البادية لطباعا غلاظا ونفوسا يملؤها الطمع أنتم لا تحسون الدين ولا تقدرون الغيب ولا تؤمنون الا بما ترون ولا تخافون الا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مقامك الطويل بمكة قد غير نفسك بعض الشيء . فاذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد الى هذه البطحاء . هوني عليك ولا تشغلي نفسك بما لست منه في قليل ولا كثير . لقد أمرني الطائف أن احتفر ووعدني أن أجد الماء لأسقي الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بني عامر . فليس هذا الذهب لي ولا لقريش وانما مخبوء لأمر يراد واني لمن قوم لا يحبون النصب ولا يستأثرون بما ليس لهم ولا يعتدون الحقوق ، فان تكن غلظة الاعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقتك فذي رحالك غدا وألمي بأهلك فهم أحق بك وأدنى اليك . قال ذلك ونهض مغضبا وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف تقاوم غيظا لم يلبث أن استحال الى دموع غلاظ تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله وحتى اضطربت له مجالس قريش في أفناء البيت فخف الناس اليه وهم يقولون : ما نرى ابن هاشم هذا الا مطروقا يلقى من الجن شططا ويريد أن نلقى منه شططا . اقبلوا اليه سراعا يزدحمون وقد آلي اشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز أو عثر على غنيمة ليغلبنه عليها وليمنعنه منها نصيب رجل من قريش وانتهوا اليه . وهو يكبر ويصيح هـذا طي اسماعيل هذه بئر زمزم ، هذه سقاية الحاج ، لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فاذا عبد المطلب قد وجد الماء ، واذا هو يستقي فيشرب ويسقي ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقي الارض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ورفقوا به وقالوا: لقد بررت بقومك ياشيبة وانبطت لهم هذا الماء يستقون منه اذ ضنت عليهم الينابيع فوصلتك رحم ، لنعرفن لك قريش هذه اليد . قال ما أنتم وذاك ؟ هذه بئري قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط الي من السماء . وهذا شرب ساقه الله الي سأسقيكم منه اذا أردت . ولكني أسقي الحجيج منه قبل أن أسقيكم فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا يا ابن هاشم انك لتسرف على نفسك . وتشط على قومك وتختلق على السماء . ان هذه الارض ليست لك وانما هي لله ثم لقريش ، وان كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش ، وانا لم نشهد أمر السماء حين تنزل اليك ومتى تنزل أمر السماء على الناس الا من طريق الكهان . فأين الكاهن الذي أمرك أن تحتفر ؟ قال : يا قوم خلوا بيني وبين الماء . فوالله لن تبلغوا مني شيئا انكم تكثرونني بعددكم وعديدكم . ولكن الذي أمرني باستنباط هذا الماء حري ان يردعني كيدكم ويحميني من ظلمكم . انكم تستضعفونني حين ترون أني ابو واحد ولكن الذي سخرني لهذا الأمر خليق أن يمنحني من الولد من أكاثركم به واني أقسم لئن منحني من الولد عشرة ذكورا أراهم بين يدي لأضحين له بواحد . وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب فثارت نفوسهم وتعصبوا له وقاموا من دونه يردون عنه عدوان قريش وكاد الشر أن يقع بين القوم ولكن عبد المطلب قال : ياقوم فيم قطع الارحام وخفر الذمم واراقة الدماء ؟ اني والله ما أوثر نفسي من دونكم بشيء فان أبيتم أن تؤمنوا لي فهلم الى حكم فليقض بيننا . قال الملأ من قريش لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه . فليكف بعضكم عن بعض ولنحتكم الى كاهنة بني سعد هذيم فما نعرف ابصر منها بمواقع الحكم .

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة الى الشام فأجمع القوم أن يصحبها رسلهم الى الكاهنة في معان . فلما فصلت العير صحبها عبد المطلب في عشرين من بني عبد مناف وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ونفد ما كان معهم من ماء واشتد بهم الظمأ وأحرق اكبادهم الصدى وغدوا ذات يوم في فلاة مبسوطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدي الى أمد ليس فيها عين ولا بئر ولا شجرة ولا عشب وانما هي أرض ملساء جرداء تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الاقدام وقد يئس القوم من كل روح وقنطوا من كل وجهة فاجتمعوا يتشاورون . قال قائل منهم ياقوم انما هو الموت فأنتم بين اثنتين : اما أن تموتوا ضيعة وتصبح أجسامكم نهبا لسباع الارض والجو لا تواريكم يد في التراب ولا تؤوي نفوسكم الى جدث تطمئن فيه واما أن يقوم بعضكم على بعض ويواري بعضكم بعضا فيكون لكل منكم حفرته وتعرف نفوسكم اذا هامت في الفضاء الواسع وألمت بأهلها في بطاح مكة وظواهرها كيف تهتدي الى أجسادها فتلم بها وتسكن اليها . والرأي أن يحتفر كل منكم حفرته ، وان تقيموا فأيكم ذهب الصدى بنفسه ورآه أصحابه وبكوا عليه . فلا يذهب منكم ضيعة الا رجل واحد تمتد به الحياة الى أقصى أجل . قال ذلك قائلهم ونهض فأخذ يحفر حفرته . وتثاقل القوم بعض الشيء يفكرون في أولادهم وآخرتهم ويذكرون مكة ومن تركوا فيها من أهل وولد ومال . ويذكرون الشام وينظرون الى ما كانوا يحملون اليها من تجارة ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح . وتقدم رسل قريش الى الكاهنة يتلاومون في البئر وفي خصومتهم لصاحب الحق. ثم ينهضون والموت يثقل نفوسهم فيعمد كل منهم الى سنان يخط به حفرته في الارض .

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يومئ. ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض : يا معشر قريش ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم وتنتظرون الموت وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة ، وان فيكم لبقية من قوة وان في ابلكم القدرة على الحركة وفضلا من النشاط لا والله ما أنا بمسلم نفسي للموت حتى يكرهني عليها ، هلم فاضربوا في هذه الأرض فلعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجا » ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث واذا الآمال تحيا . واذا النشاط يتجدد واذا القوم ينهضون الى رواحلهم واذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسعوا هم اليه وينهض عبد المطلب الى راحلته حتى اذا جلس عليها وزجرها نهضت به وهمت لتندفع ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ؟ ماذا يرون ؟ هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مكبرا وهم يتلفتون فاذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خف الراحلة واذا هي تفور واذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الارض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء !

هلم يا معشر قريش الى الماء الرواء ! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد . هلم فاشربوا واسقوا ابلكم واملأوا مزادكم هلم فانعموا بهذا الماء الصافي النقي البارد في هذه الفلاة القائظة المحرقة .

والقوم يضجون بالرضى والغبطة وان للابل من حولهم لأطيطا ملؤه الرضى والغبطة أيضا . ومن ذا الذي زعم أن نفوس الناس وحدها هي التي تجد اللذة والألم وتشعر بالسرور والحزن ، روي الناس ورويت الأبل ، ورويت الارض وقالت رسل قريش لعبد المطلب عد بنا ياشيبة الى مكة فقد قضي علينا وان الذي وقاك في هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك هو الذي سقاك في مكة وساق اليك ما تروي به الحجيج

وأقبل البشير على سمراء ينبئها بان زوجها قد عاد اليها سالما موفورا مظفرا . فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : « حبذا شيبة مسافرا وحبذا شيبة مقيما ! ولكن شيبة لن يخلص لي منذ اليوم . انه لايريد كثرة الولد . وأي نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه . ثم أشرقت شمس الغد على عبد المطلب وهو يسعى الى عمر بن عائذ المخزومي ليخطب اليه فاطمة وهي ام جماعة من ولده بينهم عبد الله

طه حسين

قصة عراقية

صديق الكلاب

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد [1] وسقانا ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ النار بأنامله وشبع ضرمها فى بقية الفحم ؛ ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبي الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعا لما يغلب على جو الغرفة من نفخ النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر اليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعبا : لعلك ذكرت بالكلاب حبيبتك وهي فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال : الحمد لله ماذكرت على فقرى حياة البر [2] مذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلا كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبي الكلاب هذا ياعبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لان سروره كان فى أن يتحدث وتسمع . وذهب به شيء من التيه لأن شعوره بأنه يعلم مالا نعلم يرفعه قليلا فوق قدره ، لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ، ويلهج لهجة الامير ، ويقرر تقرير العالم .

قص على هذه الاقصوصة وهو منها على يقين جازم ، وما كان أسرني وأسرك لو استطعت أن أنقلها اليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما امكنني القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى

***

كان فى بغداد منذ خمسين عاما أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الاب . وتتصل بسبب الترك من جهة الأم فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسبابا لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة ؛ فالوالدان صالحان تقيان لايفهمان من العروبة الا النبوة والقرآن ، ولا من التركية الا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن بغداد وفروق الا أنهما بلدان فى وطن واحد ، والولدان جميلان باران يكبر الذكر منهما الانثى بخمس سنين ، وقد درجا معا من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الابوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق .

لم يشغل عبدالواحد باله كثيرا بتفصيل حياة هذه الاسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلا مجملا لايحلل طبيعة شخص ، ولايحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ، حتى أسماء الاب والابن والبنت لم يجد في ذكرها مايفيد الحديث !

فهو يحذف مايزعمه فضولا ويسير قدما الى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول ان الغلام كان عمره اثنى عشر ربيعا حينما صحب خاله الى الاستانة . والاستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوي القلوب الطامحة الى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته الى دار الخلافة تثقيفا لنفسه ، أو تخفيفا عن أبيه ، أو مساعدة لخاله ، على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك يجهله راوى الحديث فما يعلم الا أنه شدا شيئا من العلم فى احدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ، ثم اندفع في غمار المدينة الصاخبة يداور الامور ويتلمس المكاسب ، ثم أوغل في مدن البلقان وشعاب الاناضول ، حينا فى خدمة الجيش ، وحينا فى طلب العيش حتى انقطع علم مابينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الاخطار فى كل فج ، ويصارع الاقدار فى كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال مايضمن له ولاسرته خفض العيش فى ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وا أسفاه رنيمه قد أدبر ، وربعه قد أقفر ، وحلمه قد تبدد !! فان والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما فى حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين . وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوي المروءات من أهل البيوتات فضمها الى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

عاد المهاجر الى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى قلبه الآمال فماوطئت قدماه ثرى العراق الذهبي حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ، ولكن شعوره بلذة العودة الى الارض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التي تقبل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبي ، والماء الذي نضح قلبه بالنعيم ، والاسرة الحنون التى يراه اليها الشوق . والمستقبل الباسم الذى ينتظره فى بغداد . قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح مابه .

عرف المحلة والدار بعد لأى لطموس المعالم القديمة . ثم قرع الباب بيد مرتجفة فاذا المالك الجديد يخرج اليه ! فاقبل عليه المسكين لهفان ضارعا يسأله : هنا كان مهبط نفسى فاين أبي ؟ وهنا كان مسقط رأسى فاين أمي ؟ وهنا كان لى مهد وأخت وملعب وجيرة ، فقل لى بربك ياسيدى اين نحمل بكل هؤلاء القدر ؟ وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله . فارتد الى الفندق لايملك دمعه ولا قلبه ، ثم قضى حينا من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص المكرب ويعالج مضض الهموم حتى رأم الزمان والايمان جروح صدره .

***

---

(١) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وانا ببغداد

(٢) بريد الصحراء

وقع في نفس الوحيد الحزين ان يتزوج ليعيد الي سجل الوجود أسم أسرته فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب اليه فتاة يقولون ان بينها وبين بني فلان عاطفة رحم . ويؤكدون أنها تنزع الى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم فاطمأن قلب الخطيب الى رأى الخاطبة واختلفت العجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمى الصداق وعينت ليلة الزفاف .

زفت العروس الى زوجها فبهره ما رأى من جمال واحس من ظرف وسمع من أدب ، فافتر في وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه ، ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفى ذات ليلة تجاذب العروسان اطراف السمر وشققا بينهما الحديث حتى افضى الى علاقتها بوليها فلان (بك) فاحب الزوج ان يعرف درجة القرابة بينها ، فنضت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل في وجهها ، وقالت في صوت خافت متهافت من الحزن والخوف : الحقيقة ان ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة ! ! وانما هو نبيل محسن آواني ورباني بعدما فجعني البين في أخي ، والموت في أبي ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشرة . ثم تتابعت الاسئلة من الزوج ، وتسارعت الاجوبة من الزوجة ، وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب استقع لونه واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته الى انخداعه في أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسي أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها ، ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الاخير حتى رأت زوجها قد قفقف شعره وانتفخ سحره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخا يقول : واويلتاه واأمصيبتاه ! لقد تزوجت أختي ! .... ثم خر مغشيا عليه . فلما ثاب اليه بعض رشده نظر الى أخته فوجدها فاقدة الوعي فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لا يلوي على شيء ولا يلتفت الى أحد ! .

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك [1]) من قصره م هام في الطرق الضيقة المتشابكة يسأل الرائح والغادي عن مفتي نداد ، فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة فهول عليه الركى بعقابها ، بالغ في جرائرها وأعقابها . ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والروبا ن الله لا يكفر هذا الجرم الا اذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر باخلاق الثياب ، وقضي بقية عمره في جمع الخبز للكلاب شوارد !

اذعن الخاطيء البريء لحكم الفقيه الاحمق ونزل للزوجة الاخت ا يملك ، وارتدى طمرا من غليظ الكرباس وحمل على عاتقه مخلاة

(١) في الاساطير اليونانية ان اوديب الملك تغفى عليه أن يقتل أباه زوج أمه فلما نفذ القضاء فقأ غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائما يده ابنته انتيغون

« البقية على ص ٣٢ »

« بقية المنشور على صفحة ٢١ »

ويعتقد في خلود أقواله هو [1] . أيها الشعر انه يسخر من رموزك الوقره وأنت للمفكرين الحقيقيين موضع الحب الذي لا يفنى .

—١٠—

كيف تصان الافكار العميقة ما لم تتجمع نيرانها في ماستك الدنية التي تحفظ سناها المتركز . تلك المرآة الصافية الوهاجة المتينة — بقايا مايبيد من دول — ذلك الحجر الخالد الذي تمر به اقدامنا عندما نبحث عن انقاض المدن الفانية فلا نجد لها من أثر .

—١١—

أيتها الماسة الفريدة ليفي . شعاعك للعقل الانساني مواضع خطواته البطيئة المتخلفة . ليضمك الراعي على قمة منزله لكي نستطيع ان نرقب عن بعد الشعوب تطوى سبيلها . لما يصح النهار وما تزال عند أوائل أشعته الفضية التي تسبق بزوغ الفجر وتميز أفق السماء من مستوى الارض .

—١٢—

ما تكاد الشعوب تفطن لفسها وسط حشائش العوسج التي نبتت حولها وهي غارقة في سباتها . ها قد أخذت أيديهم التضافرة تشق سوقها لضع الجهاز الأول [2] . ما تزال البربرية تمسك أقدامنا في غمدها . وما يزال رخام الازمنة الساحقة يغلنا الي ما فوق خواصرنا . ما أشبه كل رجل نشيط بالاله « ترميس [3] » .

—١٣—

على أن روحنا الوثابة تفيض بالنشاط ، فلنشق الحجب عن مكنون قواها والمكنون موجود وان تواري عن النظر . للنفوس عالم تجمعت به كنوزها وان لم نستطع لها لمسا . بين احضان الله تضام الوجود وفي منطقه تركزت حكمة البشر كما تركزت أجسامنا في فضاء الارض .

محمد عبد الحميد مندور
ليسانسيه في الآداب

(١) قصد بذلك لامرتين .

(٢) ماذا يريد أن يقول الشاعر وما معنى الجهاز الاول أمر تحيرت فيه ألباب الشارحين وأنا هنا أعرض رأيي كما أبديته لاحد الاساتذه وسربه ويتخلص في أن الشاعر يعطينا تشبيها تمثيليا أحد طرفيه الانسان وهو غارق في الجهل الذي طغى عليه وهو نائم والطرف الآخر جماعة من الناس ناموا وتركتهم نبتت حولهم العوسج حتى غطاهم فلما استيقظوا أخذوا من فورهم في أعمال الفأس أي الجهاز الاول لحصد تلك الحشائش فالجهاز من جهة التجريد هو عقل الانسان الذى يعمله في الجهل ليحصده ومن جهة التجسيم هو الفأس التى تحصد الحشائش .

(٣) في هذه الفقرة تظهر قدرة الشاعر على استنباط المعاني والصور فكلها مستوحاة من تمثال الاله « ترميس » إله الحدود عند الرومان فلقد بلغ من احترام حق الملكية عند الرومان ان كانوا يحدون أملاكهم بتمثال الله حتى يكون نصيب من يتعدى عليه الشقاء الابدي وكانوا يمثلون هذا الاله نصفه الاعلى صورة رجل ونصفه الاسفل قاعدة من الرخام . فتصور الشاعر الاله رجلا حبسنا نصفه الاسفل في رخام ومن ذلك اشتق معانيه فنحن غارقون في الجهل الى مافوق خواصرنا كالاله « ترميس » وكل رجل نشيط يشبه الاله « ترميس » في أن نصفه الاسفل مسجون في بحار الجهل كما أن نصف ذلك الاله مسجون في الرخام والجهل يمسك أقدامنا في غمده كما يمسك الرخام ذلك الاله .

مدام دى لوزى

بقلم اناتول فرانس

من « علبة الصـــدف »

— ١ —

دخلت فدت بولين دى لوزى إلى يدها . ثم لزمنا الصمت حينا . وكانت قد ألقت فى شىء من الاهمال على أحـد الـكراسى طرحتها وقبعتها من الخوص

وفتحت على المعزف صلاة أورفيه . ثم دنت من النافذة ، ونظرت الى الشمس تهبط فى الافق الدامى . فقلت لها آخر الأمر ، أتذكرين الـكلمات التى نطقت بها منذ عامين يوما بيوم ، فى أسفل هذا التل ، وعلى شاطىء هـذا النهر الذى تديرين اليه عينيك الآن ؟ أتذكرين انك ، وأنت تديرين حولك يدى المتنبئة ، قد أريتنى معدما أيام المحنة ، أيام الجرائم والهول ؟

لقد وقفت على شفتى اعلان حبى اليك وقلت : «عش ، وجاهد فى سبيل العدل والحرية ! » سيدتى ، لقد مضيت جريئا منذ دلتنى على الطريق يدك الى أغمرها كما كنت أحب بالدموع والقبل . لقد أطعتك ، فكتبت ، وخطبت . أنفقت عامين أجاهد فى غير هوادة أولئك الاغمار الجياع الذين ينشرون الاضطراب والبغض ، والزعماء الذين يسحرون الشعب بهذه المظاهر العصبية يصورون بها حبا كاذبا ، والجبناء الذين يضحون فى سبيل الفوز القريب .

فاضطرتنى الى الصمت بحركة من يدها وأشارت أن استمع ! هنالك سمعنا فى ثنايا الهواء العطر ، هواء الحديقة حيث تصدح الطير ، صيحات بالموت تأتى من بعيد : «الى المشنقة أيها الأرستوقراطى !.. ليوضع رأسه على الرمح ! » .

وكانت شاحبة ، ساكنة قد وضعت اصبعا على فمها .

قلت ، انما هو الطلب يجد فى اثر أحد البائسين . فهم يهاجمون الدور ويقبضون على الناس نهارا وليلا فى باريس . ولعلهم يدخلون هنا . يجب على أن أنصرف حتى لا اعرضك للشر . فمع أنى لا أكاد أعرف فى هذا الحى ، فأنا فى هذه الايام ضيف خطر .

قلت : أقم !

وللمرة الثانية مزقت الصيحات الهواء الهادىء فى المساء . وكان يخالطها وقع الخطى وطلق النار . كانوا يدنون وكنا نسمع : « سدوا المنافذ ، لايفلت الوغد ! »

وكانت مدام دى لوزى ظاهرة الهدوء ، يعظم حظها منـه كلما قرب الخطر .

قالت لنصعد الى الطبقة الثانية ؛ فقد نستطيع أن نرى من ثنايا النافذة ما يحدث خارج البيت .

ولـكنها لم تـكد تفتح الباب ، حتى رأت فى الدهليز رجلا ممتقعا مختلط الهيئة ، تصطك أسنانه ، وتصطدم ركبتاه من الاضطراب . وكان هذا الشبح يغمغم بصوت مختنق : انقذونى خبئونى ! . . . هاهم أولاء .. لقد اقتحموا بابى ؛ واغاروا على حديقتى .. هم يدنون..

— ٢ —

عرفت مدام دى لوزى « بلونشونيه » الفيلسوف الذى يسكن الدار المجاورة ، فسألته فى صوت شديد الخفوت :

هل بصرت بك طاهيتي ؟ فهى يعقوبية !

أجاب لم يرنى أحد .

قالت الحمد لله ، أيها الجار !

ثم قادته الى غرفة نومها حيث تبعتها . ولم يكن بد من الحيلة ، ولم يكن بد من أن نجد مخبأ تخفى فيه «بلونشونيه »أياما ، أو ساعات على الاقل ، حتى تخدع الطالبين وتتعبهم . واتفقنا على أن اراقب المسالك الى البيت حتى اذا آذنتها انسل الصديق البائس من باب الحديقة الصغير .

ولم يكن فى اثناء ذلك يستطيع أن يثبت على قدميه . كان رجلا مصعوقا .

وحاول أن يفهمنا أنهم يجدون فى طلبه ، هو عدو القسيسين والملوك ، لانه إئتمر بالدستور مع مسيو « دى كزوت » وأنضم فى ١٠ اغسطس الى المدافعين عن قصر التويلري. ولم يكن هذا كله الا اتهاما دنيئا . انما الحق أن «لوبان » كان يتبعه بحقده وموجدته ؛ كان لوبان جزاره ،وكثيرا ما هم أن يضربه بالعصى ليأخذه بأن يحسن وزن اللحم، ولـكنه الآن يرأس لجنة الحى الذى يقوم فيه حانوته .

وبينا هو يغمغم بهذا الاسم مختنق الصوت ، خيل اليه انه يرى لوبان نفســه ، فأخفى وجهه بيديه . وكان لوبان يصعد حقا فى السلم . فأحكمت مدام دى لوزى رتاج الباب ودفعت الشيخ خلف ستار .

ودق الباب ، وعرفت بولين صوت طاهيتها ، التى كانت تصيح بها أن افتحى ، وان لجنة البلدية بالباب ومعها الحرس الوطني ، يريدون أن يفتشوا ، يزعمون أن بلونشونيه فى البيت ، وأنا واثقة بأنهم مخطئون ، فما كنت لتخفى وغدا كهذا ، ولـكنهم لايريدون تصديقى.

فصاحت مدام دى لوزي من وراء الباب حسن ! فليصعدوا ! أطلعيهم على البيت كله من أسفله الى أعلاه .

وسمع البائس بلونشونيه هذا الحوار فأغمى عليه خلف ستارة ، ولم ترد عليه الحياة الا بعد مشقة حين نضحت صدغيه بالماء . فلما أفاق قالت الغادة للشيخ فى صوت خافت : اعتمد على صديقى ، واذكر أن النساء مكرة .

ثم اقبلت في هدوء ودعة كما لو كانت تعانى بعض شؤون البيت الى السرير ، فجذبته من مكانه قليلا ، ونفضت الغطاء واستعانت بى فى بث بين وسائده الثلاث فراغا مما يلى الحائط .

وبينا هي في ذلك اذا ضجيج عظيم للاحذية ، والقباقيب ، والكرانيف والأسواط الثلاثة يسمع في السلم . فقضينا ثلاثتنا دقيقة ملؤها الروع ، ولكن الضجيج صعد قليلا قليلا فوق رءوسنا . فعرفنا أن الحرس قد بدأوا بقيادة الطاهية اليعقوبيه يفتشون على البيت . وكان السقف يضطرب ، وكان يسمع للقوم نذير ، وضحك غليظ ، وضرب بالأرجل والحراب في الجدران . فتنفسنا ولكن لم تكن في الوقت سعة . واعتمد بلوتشونيه على أن يدخل في الفراغ المهيأ بين الوسائد.

وكانت مدام دي لوزي ، تهز رأسها وهي تنظر الينا . فقد كان للسرير بعد هذا العبث شكل مريب . فحاولت ان ترده الي هيئته الاولى ، ولكنها لم تفلح .

قالت : لابد من أن انام فيه . ثم نظرت في الساعة ، فاذا هي السابعة مساء .

فقدرت ان اسراعها الي النوم في هذه الساعة سيبعث الريبة . ولا سبيل الى التفكير في تكلف المرض : فان الطاهية اليعقوبية خليقة أن تفضح هذا المكر .

فلبثت على هذا النحو مفكرة لحظات ، ثم اذا هي في هدوء وبساطة وحياء ، ملؤه الجلال تخرج من ثيابها أمامي ، ثم تدخل في سريرها وتأمرني أن أخلع نعلي واتجرد من ثيابي وهي تقول : يجب أن تكون خليلي وأن نفاجأ في هذه الحال . فاذا اقبلوا لم تجد من الوقت ماتهيء فيه زيك وتصلح من شكلك . فتفتح لهم في لبسة المتفضل وقد انتثر شعرك . . .

وكان كل شيء قد تم كما قدرنا حين هبط الحرس الوطني صاخبا ساخطا .

وأخذ بلوتشونية البائس رعشة عنيفة كان السرير يضطرب لها اضطراباً .

وكان تنفسه من القوة بحيث كان يجب أن يسمع من خارج الغرفة.

قالت مدام دي لوزي : يا للخسران لقد كنت شديدة الرضى بهذه الحيلة . وبعد فلا ينبغي أن نيأس فلعل الله ان يعيننا .

واضطرب الباب لصدمة قوية .

قالت : من الطارق ؟

فاجبت : هم ممثلوا الامة .

قالت : ألا تنتظرون حينا ؟

قيل : افتحي والا كسرنا الباب .

قالت : هلم فافتح ياصاحبي .

وما هي الا ان كانت المعجزة فانقطع اضطراب بلوتشونيه وزحيره فجأة .

— ٣ —

وكان أول الداخلين لوبان وقد اتخذ منطقته وتبعه اثنتا عشرة حربة .

فأدار بصره بين مدام دي لوزي وبيني ثم قال : غ ، غ ! لقد استكشفنا عاشقين ! معذرة ايتها الحسناء !

ثم التفت الى الحرس وهو يقول : انما الاخلاق للثائرين . ولكن هذه المصادفة رغم حكمته قد ملأته سرورا .

فأقبل حتى جلس على السرير وأخذ بذقن الحسناء الارستقراطية وهو يقول : نعم ان هذا الفم لم يخلق ليردد في الليل والنهار : أبانا الذى في السماء ! .

ولو قد فعل لعظمت الخسارة ، ولكن الجمهورية قبل كل شيء . انما نبحث عن الخائن بلوتشونيه . هو هنا، لا اشك في ذلك . لابد لي منها . لأتقدمنه لتضرب عنقه . ولأكونن بذلك سعيداً .

قالت : فتشوا عنه اذن .

فنظروا تحت الاثاث وفي الخزائن ،وادخلوا الحراب تحت السرير، وجسوا الوسائد بالخناجر .

وكان لوبان ينظر اليه بمؤخر عينه وهو يحك أذنه . فاشفقت مدام دي لوزي أن يوجه اليه اسئلة محرجة،فقالت: انت تعرف البيت كما أعرفه ياصاحبي . فخذ المفاتيح وطوف بمسيو لوبان بكل مكان . وانا اعلم انك ستجد لذة وسرورا في ارشاد المخلصين للوطن .

فقادتهم الى الكهف حيث تروا مافيه من حطب وشربوا عددا ضخما من القناني . ثم شق لوبان بكرتفته الدنان المترعة . فلما خرج من الكهف الغارق في النبيذ أذن بالرحيل . فصحبتهم حتى اغلقت من دونهم الباب ،وأسرعت أعلن الى مدام دي لوزي أن قد نجونا .

فلما سمعت هذا النبأ عطفت رأسها الى الفراغ بين السرير والحائط ، ونادت : مسيو بلوشونيه ! مسيو بلوشونيه .

فأجابها رجع نفس ضئيل .

هنالك صاحت الحمد لله ! لقد روعتني فقد كنت أرى انك قضيت !. ثم التفتت الى قائلة : مسكين انت أيها الصديق لقد كنت تجد لذة عظيمة في أن تقول لى من حين انك تحبنى ، لن تقولها لى بعد اليوم .



شعورى نحو مصر والمصرية

كاتبة هذا المقال سيدة سويسرية واسعة الثقافة دقيقة الملاحظة صافية الشعور وقد وعدت الرسالة أن توالى الكتابة فى هذا الموضوع فلها الشكر

(المحرر)

مصر اسم يخلب اللب ويسحر القلب ويستثير حتى فى أجفى الناس طبعاً صورة هذا البلد الفاتن والطبيعة الخصيبة والبدر اللامع ويلهم النفوس ذكرى هذا الماضى العريق والمدنية القديمة والعظمة الفرعونية وقصص الف ليلة وليلة الرائعة ، وقد انهكتها جهود المدنية الاولى فاستجمت بعد هذا الشوط البعيد حقبة طويلة من الدهر ما تزال تتذوق فيها خيال هذا الماضى العظيم وسلطانها السالف !

وكم من عاشقين غمرتهم شمسها الضاحكة بالفرح والسعادة ودفء القلوب !

وكم من خياليين جاشت نفوسهم فى ربوعها ومجاليها بالأخيلة السعيدة والاحلام البهيجة !

وكم من مترفين ملأوا فراغ حياتهم وخيالهم بمباهجها ومناظرها وقضوا شهوة التطلع من عجائبها ومن المتناقضات فيها !

أليست تجمع فى الواقع الكثير من هذا التناقض ؟ فيجاور الجاه العريض والرغد الوفير البؤس الساحق والفقر المدقع ؟

ألست ترى السيارات الفخمة ذات الفرش الوثيرة عند مداخل الملاهى والغلمان الضريرين يستدرون الرحمة ويسألون العطف فى أسمال رثة ؟ !

على أن المدنية تسير فيها الآن بخطى واسعة سريعة ففى الحين بعد الحين يبدو بين الناس رأى ناضج أو صناعة رائجة فتكون الدليل الساطع على الفوز والنجاح . على أن كثيرا ما فارت حماسة الناس ثم قرت ، واتقدت شعلتهم ثم خبت ، ما أشد حاجتهم الى ملكة الاستمرار والاستقرار !

ولطالما سئلت عن رأيى وشعورى فى مصر . وكان جوابى واحدا لا يتغير ، انها ككل بلاد العالم فيها الطيب والخبيث ، على أنا اذا قدرنا ان العوامل الاجتماعية وظروف الحياة تخلق الامم كما تخلق الفرد وجب الا يغيب عن أذهاننا تأثير هذه الظروف والعوامل حين الحكم على مصر التى تجاهد الايام لاستعادة عظمة القرون الاولى

فاذا أردت أن أتحدث عن شىء فيها فأنا أتحدث عن أقوى العوامل أثرا فى تكوينها ، وهو المرأة فى مختلف أطوارها وادوارها ومسؤولياتها وواجباتها

وقد يبدو للنظرة الاولى أن أثرها ضئيل ، فما وجه العلاقة والخطر بين هذا المخلوق الخانع قليل الحظ من العلم ومن عظمة الأمة ومجد الوطن ؟

لقد قضيت الآن فى مصر ثلاث سنين شعرت فيها بجاذبية غريزية تجذبنى نحو المرأة ، وأغلب ظنى انها تحتاج الى عناية أكثر وجهد أوفر ، فانها أس الحركة الروحية وجماع الأسرة وروحها الجياشة وشريك الزوج ومربية الاطفال وربة الدار

ولقد استطعت أن أقدر وأنا أعيش فى بيئة مصرية محضة أن المرأة لا تستطيع أن تكون كل ذلك الا اذا بذلت أعظم مجهود وتغلبت على كل صعوبة فانها ماتزال ترسف فى أغلال العادات وتعليمها لا يزال ناقصا ، وشعورها العميق الذى ولده التقليد القديم بأنها مخلوق تافه الشأن ضئيل الوجود يقتل فى نفسها أسمى معانى الحياة

وهى بطبيعتها مقلدة غير مستقلة ، فكم شاهدت سيدات الأسرة الواحدة لا يختلفن فى القناع والمعطف والفراء وقد نبذن عصابة الرأس الشرقية التى كانت تلائم الوجه الشرقى كل الملاءمة

على أن البدء عسير عادة ، والمرأة المصرية ما تزال فى خطوات التطور الاولى ، بل قد يكون البدء فى بعض الأحيان مثيرا للاشفاق والنقد ، فاننا اذا لاحظنا زينتها وتجملها رأينا ما يبعث أحيانا على السخرية ، فليس أضحك من وجه شرقى الملامح زاد الكحل عينيه الدعجاوين سوادا ، وشفتين خضبهما الاحمر القانى ، وشعر قد حاله الاوكسجين الى أصفر فاقع

فنصيحتى الى المصرية العزيزة أن القصد والبساطة فى التجمل والزينة هما سر رشاقة المرأة وأناقتها .

كامل

(يتبع)

اشتراك الفتاة فى الحياة العملية

أنا ان اقدمت على الخوض فى هذا الموضوع فلست أبشر بمبدأ جديد لم تعرفه مصر، أو افتح بابا موصدا فى هذا البلد العزيز فكلنا يعرف ما تقوم به الريفية المصرية من الاعمال فهى والرجل على قدم المساواة فى العمل بل قد تبذه فى كثير من نواحى الحياة مما يقصر عنه باع فلاحنا وتضرب فيه الريفية بسهم عظيم، على اننى بمعالجة هذا الموضوع أريد أن أوجه النظر الى حياة الفتاة المدنية فاستعرض بعض نظمها وأتتبع بعض أدوائها على أوفق الى ايصال صوتى اليها!

وفى نطاق هذه الكلمة أخرج من دائرتى بنات الطبقة الفقيرة المعدمة فهؤلاء غير ملومات ولا يمكن أن ينسب اليهن أو الى أوليائهن أى تقصير فهن بحكم ظروفهن قد هدتهن الطبيعة الى استنباط وسائل العيش فكن أقدر من غيرهن على خوض غمار الحياة على رغم ما بهن من فاقة وما يحيط بهن من املاق، ولكننا أنظر الى فتاة الطبقة الوسطى وفتاة الطبقة الغنية لأرى هل نظرت احداهما الى الحياة نظرة عملية تتفق وعصرنا الحديث؟

قد ينكر البعض على هذا التساؤل ولكنى أريد أن أصل الى الحقيقة لا يشوبها ملق ولا يموهها خداع، أريد أن أنظر الى اخواتى وأترابى بعين الحقيقة والواقع

حقا ان البعض متعلمات والبعض مقبلات على التعليم ولكنى أرى الكثيرات لا يأخذن الحياة بعلمهن فيمهدنها لمستقبل عملى مجيد. أرى الكثيرات وقد قنعن بقشور التعليم دون اللباب وقبعن فى عقر دارهن مكتفيات ببضع كلمات جوفاء يتشدقن بها خلال التفنن فى التبرج وقضاء الساعات أمام المرآة.

الحق ان مثل هذه النتيجة لا تساوى عناء الدرس وليس فيها لهذا البلد غناء.

هلا كان منهن من نظرن الى أنفسهن والى وطنهن وجعلن من حياتهن متسعا لخدمة الاثنين! ماذا يفيد الأمة وآنساتها متأنقات جميلات ولكن على حساب الرجل التعس الذى يعولهن؟ ماذا يفيد الأمة وآنساتها مستهلكات غير منتجات منفقات ثروات الرجال فى المخازن الاجنبية لقاء ثوب أنيق أعجبهن وأداة زينة استغوتهن؟ أريد أن تستثمر الفتاة العلم الذى تعلمت. أريد أن تشعر الرجل انها لم تعد ذلك الحيوان المدلل الذى يعيش على حسابه ولمتعته. أريد أن تقاسم الفتاة الرجل فى العمل والكسب والتمتع بالحياة. أريد فتاة مصرية عاملة تعمل وتزاحم فى الحياة بالمنكبين تستشعر لذة العمل وتنهض بمصرنا العزيزة وتربأ بنفسها أن تكون قعيدة البيت أسيرة المرآة، أريد الفتاة التى تثأر لحولها الماضى الطويل وتستقبل الدنيا بنفس ملؤها العزم والحزم تزينها الكرامة ويتوجها العفاف.

ترى هل من تستجيب لدعائى؟ ترى هل من تنهض من أجل مصر؟ ان قلب مصر ليخفق، وان مصر لتزخر بالحياة وان هوالا أن نتسابق الى العمل حتى نهز العالم بجلال نهضتنا ونمضى كما بدأنا مصريين لنا نفوس أبية وأيد فتية وأثر فى الحضارة غير منكور

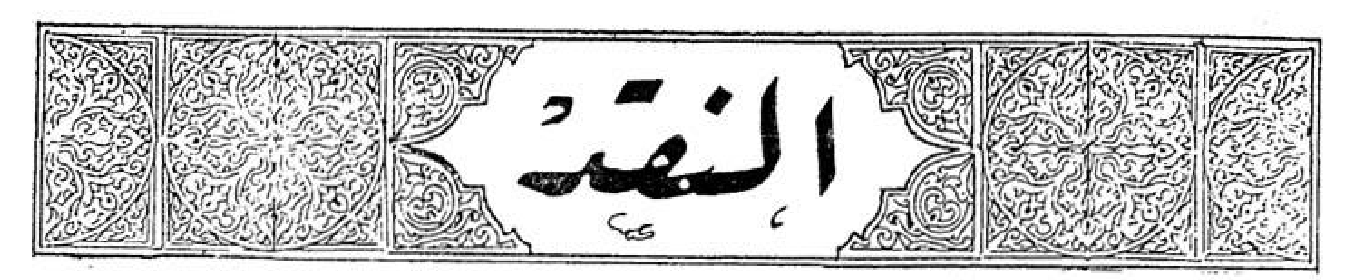
تحية ابو العلا
مدرسة بمدرسة غمرة الابتدائية

صديق الكلاب بقية المنشور على صفحة ٢٨

ومضى يقرع كل بيت ويقصد كل مطعم فيجمع الفتات والخبز ثم يقف بالميدان فيقسمه بالسوية على من اجاب الدعوة من كلاب الحى.

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب فصار يمشى فى الازقة وخلفه منها قطيع، وينام فى العراء وحوله من شدادها حرس مطيع، وتعين الوجبة العامة فلا تجد كلبا طليقا فى بغداد الا أجاب نداءه. وتناول من يديه المحمومتين غداءه، ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب على رعيته عافية وربيع فسمن هزيلها وكثر قليلها حتى اختنق بلهاثها النهار؛ وصم بنباحها الليل، وأصاب الناس من عضاضها وأمراضها شر كبير. فأقام فى ظاهر المدينة حظيرة واسعة ثم أمر الشرطة فصادوا الضوارى وألقوها فيها. فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب الى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ثم يتهالك على الارض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح.

وفى ضحوة يوم من الايام أولم الوالى لاسراه وليمة السفاح فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح، وجاء ابو الكلاب فرأى الافه الخلصاء على أديم الارض صرعى لا يتملقن بعين ولا يبصبصن بذنب!! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت وشبح الجريمة يحيا فتساقط بجانب السور مهدود القوى صريع اليأس ولبث مكانه لا يأكل طعاما ولا يذوق مناما حتى لحق بربه.



لاتينيون وسكسونيون

أرضى أم نسخط حين تعنى الصحف السيارة بالأدب والنقد وحين تتفق مع كبار الأدباء والنقاد على أن يحرروا لها ما تحتاج اليه من الفصول فيهما ؟ في ذلك مايدعو الى الرضى من غير شك فهذه الصحف السيارة منتشرة وهي أشد انتشاراً من الكتب وأدنى الى نفوس الناس وعقولهم والى عيونهم وآذانهم من المحاضرات والأحاديث فهي اذاً تخدم الادب والنقد حين تذيع رسالتهما في أكثر عدد ممكن من الناس وهي اذاً تخدم الناس حين تنشر فيهم الثقافة الأدبية وترفع دهماءهم الى حيث يستطيعون أن يروا ويذوقوا جمال الأدب الرائع وآيات الفن الرفيع . وهي لهذا وذاك تخدم الأدباء والنقاد أنفسهم لأنها تعرفهم الى اكبر عدد ممكن من الناس في أقطار مختلفة من الارض فترفع ذكرهم وتعلي قدرهم وتنشر دعوتهم وتكسب لهم الأنصار والمؤيدين وهي بعد هذا كله وقبل هذا كله تخدم نفسها حين تستعين بالأدباء والنقاد على كسب القراء وتستعين برضى القراء على احتكار الادباء والنقاد . كل هذا حق ولكن هناك حقا آخر يظهر أن ليس من سبيل الى الشك فيه وهو أن عناية الصحف السيارة بالأدب والنقد لا تخلو من ضرر، ومن ضرر قد لايكون قليلا . فالأدب والنقد في حاجة الى الاناة والروية وامعان التدبر واطالة التفكير فاذا لم يظفر الأدب والنقد بهذا كله فهما عرضة للضعف والفتور وهما عرضة للتقصير والقصور وهما عرضة لتجاوز الحق والتورط في الباطل وهما عرضة بهذا كله للاساءة الى أنفسهما وللاساءة الى الادباء وللاساءة الى القراء أنفسهم . فانما يكون الخير في نشر الادب والنقد اذا نشرا على وجههما جميلين رفيعين منصفين متبرئين من هذه العيوب التي تفسد جمال الفنون العليا . وأظنك لا تخالفني في أن حياة الصحف السيارة وضروراتها وحاجتها القاهرة الى أن تظهر في نظام وتصدر في وقت معين وتعطي قراءها ماتعودت أن تعطيهم في كل يوم أبعد الاشياء عن ملاءمة ما يحتاج اليه الأدب والنقد من الاناة والروية ومن التدبر واطالة التفكير . ولعلك قرأت في بعض الكتب التي قصت علينا حياة اناتول فرانس وفصلت لنا بعد موته اطرافا من سيرته وأطواره في حياته الادبية انه شقي بهذا ثم تعوده فسخر منه وازدرى الصحف والأدب والقراء ونفسه أيضاً وعبث بهذا كله . فكان في بعض الأحيان من أقل الناس عناية بما يكتب للصحف وتحريا فيه للحق ولا سيما حين كان يكتب لبعض الصحف الاجنبية كان يلفق لهذه الصحف أي شيء ويضع اسمه في آخره ويأخذ أجره على هذا التلفيق ساخراً بالصحيفة وقرائها معتزاً باسمه منتفعاً بما يقع في يده من المال كل شهر أو كل أسبوع (١)

ويعظم على الأدب والنقد خطر ما تحتاج اليه الصحف السيارة من السرعة والنظام حين لا يكون الادباء الذين يكتبون لها في الأدب والنقد مقصورين على أدبهم ونقدهم بل تضطرهم ظروف الحياة العامة والخاصة الى أن يتجاوزوهما فيكتبوا في السياسة أيضا . فهذه السياسة على أنها من حيث هي شر على الادب لأنها تستغرق من جهد الأديب وميوله وعواطفه مقداراً عظيما كان ينبغي أن يخلص للادب ، يشتد شرها ويعظم لأنها تتأثر هي ايضا بحاجة الصحف الى النظام والسرعة وبطء الأحداث السياسية وتطورها واضطرار الكاتب الى أن يتبع هذا التطور ويسايره ويكتب في ألوانه المختلفة . فاذا أضفت الى هذا كله أن للأديب أو الناقد حياته الخاصة بقسميها المادي والمعنوي وحياته الاجتماعية التي تضطره الى أن يستقبل ويزور ويجامل ويتقبل المجاملة ، عرفت مقدار الجهد الضئيل الذي تظفر به فصول الادب والنقد في الصحف من الادباء والنقاد .

خطرت لي كل هذه الخواطر حين قرأت فصلا قيما نشرته جريدة الجهاد الغراء لصديقي الاستاذ عباس محمود العقاد صباح الثلاثاء ١٧ يناير .

أراد الاستاذ العقاد أن ينقد كتاب الاستاذ أنطون الجميل في شوقي شاعر الامراء . ولم أكن أشك في أن الاستاذ سيشتد على الكتاب ومؤلفه وعلى شوقي أيضا . فمذهب الاستاذ في الادب العصري معروف وأقل ما يوصف به أنه بعيد كل البعد عن الاعجاب بشعر شوقي وعن الاقرار للذين يعجبون بهذا الشعر . وقد أشارك

(١) انظر كتاب Anatole France en pantoufles بقلم سكرتيره بردسون ص ٣١٨

الاستاذ فى كثير جدا من آرائه فى شوقى والمعجبين بهما . ولكن الشيء الذى أخاف فيه الاشتاذ أشد الخلاف . والذى أكتب من أجله هذا الفصل هو هذه المقدمة التى بسطها بين يدى نقده لكتاب الاستاذ أنطون الجيل . وعرض فيها لما سماه نقد اللاتينيين ونقد السكسونيين . وأحب ألا يغضب الاستاذ العقاد اذا اصطنعت الصراحة فى بسط رأيى فى هذا الفصل فلعله يوافقنى على أنه فى حقيقة الامر غير راض عن الكتاب ولا مؤمن ولكنه أراد أن يكون ناقدا مجاملا لبقاً فاستعار من اللاتينيين ما يعيبهم به من المجاملة واللباقة فى النقد لم يرد أن يصارح الأستاذ أنطون الجيل بأن كتابه لا يرضيه من كل وجه لأنه حريص على مقدار ولو محدود من المجاملة بين الزملاء . ولم يرد أن يعيد على الناس حديثه فى شوقى وشعره لان شوقى قدمات منذ وقت قصير والنظم الاجتماعية تقضى بشيء من المجاملة للموتى وللذين رزئوا فيهم أشهراً على أقل تقدير . لم يرد هذا ولا ذاك . ولم يكن يستطيع أن يهمل كتاب الاستاذ انطون الجيل فضلا عن أن يقرظه تقريظا خالصاً لان فى هذا أو ذاك ظلماً لرأيه وكتماناً لما يعتقد أنه الحق فسلك فى نقده هذه الطريقة الغريبة التى لا تخلو من التواء . اعتذر للاستاذ انطون الجيل بثقافته اللاتينية وأخذه المذهب اللاتينى فى النقد عما تورط فيه من خطأ بين وحكم غير مستقيم على شعر شوقى . ولست أدرى أظفر الاستاذ العقاد بارضاء الاستاذ انطون الجيل أم لم يظفر ؟ أوفق الى مجاملته أم لم يوفق ؟ أوفق الى مجاملة شوقى والذين رزئوا فيه أم أخطأه هذا التوفيق ؟ لست أدرى ولكني أعلم علم اليقين أنه ظلم الثقافة اللاتينية وظلم النقد اللاتينى وظلم قراءه جميعا وأظن أن ارضاء الاستاذ انطون الجيل أو مجاملته لأهون على الاستاذ العقاد وأعون على الاستاذ الجيل نفسه من ظلم العلم والأدب والقراء جميعا .

وأغرب ما فى هذا الفصل الذى كتبه الاستاذ العقاد تناقض لست أدرى كيف تورط فيه . وهو فيما أعلم من أشد الكتاب المعاصرين فى الأدب استقامة فى الحكم وايثارا للقصد وحرصا على الاصابة فى التفكير . بدأ الاستاذ فصله بأن من العسير جدا أن يوفق الناس الى الحق حين يعممون أحكامهم على الأمم والشعوب . وعلل ذلك تعليلا حسنا مستقيما ولكنه لم يلبث أن التمس لنفسه وسيلة للحكم العام على الأمم والشعوب . بل على ما هو أعم من الأمم والشعوب على الاجناس . فزعم أولا ان للاتينيين مذهبا فى النقد وان للسكسونيين مذهبا آخر وأن هذين المذهبين يختلفان فيما بينهما أشد الاختلاف . وزعم بعد ذلك ان أخص ما يمتاز به المذهب اللاتينى « الاناقة » . وأخص ما يمتاز به المذهب السكسونى « البساطة » أو « الفطرة » . وفسر هذا بانك اذا قرأت الناقد الفرنسى رأيت رجلا أنيقا لبقاً يقدم فى أحد الصالونات كاتبه الذى ينقده على الاوضاع الاجتماعية المألوفة مجاملا متكلفا وقد يومىء ايماء خفيفا الى بعض العيوب ولكن على سبيل النكتة أو على سبيل الحيلة فى التماس الدفاع عن هذا الكاتب الذى ينقده أو الرجل الذى يقدمه الى الصالون . أما الناقد السكسوني فهو لا يحفل بالاوضاع الاجتماعية . وانما يهجم بك فورا على الحياة الفردية على الحقيقة الانسانية ، على الرجل من حيث هو رجل لا من حيث هو فرد من جماعة . ومعنى هذا ان نقد اللاتينيين سطحى مخالف لأصول العلم وان نقد السكسونيين هو النقد العلمى الصحيح الذى تجد فيه المائدة وتجد فيه الغناء . وأنا احب أن يعذرنى الأستاذ العقاد اذا قلت له فى صراحة انى كنت انتظر منه كل شيء الا التورط فى هذا الخطأ الصارخ والظلم المبين . فليس من الحق بوجه من الوجوه ان الاختلاف بين النقاد اللاتينيين والسكسونيين عظيم الى هذا الحد الذى يتصوره الاستاذ . فليس هناك نقد لاتينى ونقد سكسونى ، وانما هناك نقد فحسب . فقد يعتمد على هذا الذوق الفنى العالى الذى أحدثته الثقافة اليونانية اللاتينية وورثته عنهما الأمم الحديثة على اختلاف أجناسها وبيئاتها . فكل النقاد من الفرنسيين والايطاليين والالمانيين والانجليز قد قرأوا آيات البيان اليونانى واللاتينى وذاقوا آيات الفن اليونانى والرومانى وكونوا لأنفسهم أو كونت لهم هذه القراءة ذوقا عاما مشتركا بينهم جميعا يختلف فى ظاهره ولكنه لا يختلف فى جوهره لأن هذا الجوهر واحد مستمد من هوميروس وبندار وسوفوكل وارستوفان وافلاطون وسيشرون وتاسيت ومن اليهم . نعم وهذا النقد الحديث يعتمد على أصول أخرى غير الذوق ، أصول تشبه العلم أو تحاول أن تكون علما . وضعها ارسطاليس ومن جاء بعده من نقاد اليونان والرومان وسموها علم البيان . يعتمد النقد الحديث عند الامم الاوربية مهما تختلف اجناسها على هذين الاصلين : الذوق الذى تكونه الثقافة اليونانية اللاتينية ، والعلم الذى وضعه ارسطاليس وأصحابه . وللاستاذ أن يدرس على مهل وفى أناة وروية من شاء من النقاد المحدثين فى أى أمة من الامم الأوروبية فيرى أن هؤلاء النقاد جميعا يتفقون فى أن نقدهم يقوم على هذين الاصلين اللذين أشرت اليهما . فاذا اختلفوا بعد ذلك فانما يختلفون فى الاشكال والصور باختلاف أمزجتهم الخاصة وباختلاف البيئات التى يعيشون فيها ويكتبون لها

عسير جدا أن يقال اذاً إن هناك نقدا لاتينيا ونقدا سكسونيا وأن هذين النقدين يختلفان فى الجوهر والطبيعة ، ثم اعتذر الى الاستاذ

بعد هذا من أنى لا أستطيع ولا أظن ان أحداً يستطيع أن يقره على رأيه فى النقد اللاتينى ، بل أنا لا أقضى العجب من تورط الاستاذ فى اعلان هذا الرأى الغريب فليس من الحق أن النقد اللاتينى سطحى وليس من الحق أن هذا النقد يعتمد على الاوضاع الاجتماعية ويهمل الانسان من حيث هو انسان . هذا كلام لا يمكن أن يقبل مع أن من الاشياء المقررة التى يتلقاها الشبان فى المدارس أن قوام الادب الفرنسى الكلاسيك انما هو بالضبط : الغاء هذه الفروق والاوضاع الاجتماعية التى تمتاز بها الأمم والشعوب فيما بينها بل التى تمتاز بها البيئات المختلفة فى أمة بعينها والاتجاه الى الانسان من حيث هو انسان الى هذا القدر المشترك بين الناس جميعا من العقل والشعور . على هذه القاعدة يقوم الأدب الفرنسى الكلاسيك كما يقوم عليها الادب اليونانى القديم . والأدب كله بما فيه من شعر ونثر ونقد ، فكيف يقال فى أدب يقوم على هذا الأصل انه سطحى يقوم على الظواهر والاوضاع الاجتماعية .

ولأدع الادب بمعناه العام ولأتحدث عن النقد وحده ، ولن أحدث الاستاذ عن نقد بوالو وفولتير وغيرهما من النقاد الذين عاشوا قبل الثورة فان حديث هؤلاء يطول ، وانما أتحدث الى الاستاذ عن النقد الفرنسى فى القرن الماضى ، واسأله كيف يستطيع أن يقول ان هذا النقد سطحى يعتمد على « الاناقة » و« اللباقة » والاوضاع الاجتماعية ويهمل الحقيقة الانسانية البسيطة ؟ ألم يقرأ سانت بوف ؟ ان قراءة فصل واحد لهذا الكاتب الذى ملأ الدنيا نقداً لانه أنفق فى النقد صفوة حياته تقنع الاستاذ ومن هو أقل من الاستاذ جداً الماماً بالادب والنقد بأن سانت بوف كان أبعد الناس عن أن يكون رجلا من رجال الصالونات يقدم الكتاب والشعراء الى الناس فى أناقة ولباقة وظرف ومجاملة . ولعل الاستاذ يعلم أن أهم ما أخذ به سانت بوف من العيب انما هو تعمقه أسرار الناس وبحثه عن دخائلهم وتتبعه لحياتهم الفردية فيما ينبغى أن يعرف وما ينبغى أن يجهل ، وعرضه هذا كله على الناس لأنه كان يرى أن فهم الادب رهين بفهم الشخصية الفردية للادباء الذين ينتجونه . ولو قد وقع شوقى رحمه الله بين يدى سانت بوف كما وقع لامرتين لقرأ الاستاذ العقاد فى نقد شوقى صحفا ترضيه كل الرضى وتخالف كل المخالفة ما قرأه الاستاذ فى كتاب صديقنا انطون الجميل .

لم يكن سانت بوف رجل صالونات وانما كان يغشى الصالونات فيرى ما يحدث فيها ويتخذه وسيلة لتعرف ما يقع من وراء الاستار . كان أقل الناس انخداعا بما يتحدث به الادباء عن أنفسهم وبهذه الصور الخلابة التى يعطونها لحياتهم فيما ينشئون من شعر أو نثر ، وكان يبلغ بذلك أقصى القسوة . فليقرأ الاستاذ ان اراد أحاديث الاثنين وليقرأ الصور وليقرأ كتابه عن شاتوبريان وأصحابه وليقرأ كتابه عن بورويال . وتين ؟ ماذا يقول الاستاذ عنه ؟ أكان صاحب أناقة ولباقة واعتماد على الاوضاع الاجتماعية وهو الذى أنفق جهداً عنيفا ليقيم النقد الادبى على أساس من العلم ؟ وقد قرأ الاستاذ من غير شك لا أقول كتبه فى نقد الفرنسيين بل أقول كتابه فى تاريخ الأدب الانجليزى .

زعموا أن بشاراً سئل عن جرير والفرزدق أيهما أشعر ؟ ففضل جريرا وقال فيما قال ان النوار امرأة الفرزدق ماتت فبكاها الفرزدق بمرثاة جرير لامرأته :

لولا الحياء لعادنى استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار

فليسمح لى الاستاذ أن اذكره بأن الانجليز أنفسهم لا يزالون يعتمدون الى الآن على كتاب تين فى تاريخ الآداب الانجليزية ومع ذلك فليس أدبهم في حاجة الى من يؤرخه من الاجانب .

وبرونتير ماذا يقول فيه الاستاذ ؟ أكان صاحب أناقة ولباقة وظرف وصالونات وهو أقل النقاد الفرنسيين حظا من هذا كله ، وهو أول من حاول أن يقيم النقد الادبي على مذهب درون فى تطور الانواع وفى النشوء والارتقاء . وأميل فاجيه ولانسون وبيديه وجول لمتر واناتول فرانس وبول بورجيه وبول سودى والنقاد الذين لا يزالون يملؤون الصحف والمجلات الكبرى فى فرنسا نقدا فى الادب والفن ، ما بال الاستاذ لا يقرؤهم ليتبين أحق أن النقد اللاتينى يعتمد على الاناقة واللباقة والاوضاع الاجتماعية والتماس التكلفة .

لقد فرغت الآن من قراءة فصل للكاتب الفرنسى مارسل دوشومان في مجلة العالمين التى صدرت فى أول يناير لو قرأه الاستاذ لعرف أن النقد الفرنسى أبعد ما يكون النقد عن لهو الصالونات وظرفها . في هذا الفصل يحاول الكاتب أن يهدم اسطورة آمن بها الادباء جميعا عن حياة شاتوبريان كانت تصور دعابته ولهوه وكان هو قد انتهي فى آخر حياته الى تصديقها والتخييل الي الناس أنها قد وقعت بالفعل فاذا الكاتب يثبت بالادلة القاطعة ان هذه الاسطورة لا تعتمد على أساس ويعتذر الى القراء لأنه أضاع عليهم قصة غرامية كانوا يجدون فيها لذة وجمالا . كلا ليس النقد اللاتينى سطحيا ولا يستطيع من قرأ منه شيئا ذا بال أن يقول إنه سطحى بل هو مضطر الى أن يقول مع الكاتب الفرنسى برونتير ان النقد الحديث انما نشأ ونما وآتى أطيب الثمر واصحه وألذه فى فرنسا وفى فرنسا وحدها .

وأنا أحب الا يظن الاستاذ العقاد انى أدافع هنا عن الثقافة اللاتينية على حساب الثقافات الاخرى . فأنا من أشد الناس اكبارا لثقافة السكسونية واعجابا بما عرفت منها . ولكنى كنت وسأظل من أقل الناس حديثا عنها وحكما عليها لأنى لا أحسنها وأحب ايضا الا يعتقد الاستاذ انى أكتب هذا الفصل متأثرا بالثقافة اللاتينية التى نشأت عليها كما نشأ الاستاذ انطون الجميل . فالناس جميعا يعلمون انى نشأت على الثقافة العربية الخالصة ولم أتصل بالثقافة الاوروبية الا بعد ان تقدم بى الشباب .

انما هو الحق الذي يجب أن يقال ، والعلم الذى يجب أن ينصف والقراء الذين يجب أن نجتهد فى الا نقدم اليهم الا ما نثق بانه الحق الذى لا غبار عليه . والحق الذى لا غبار عليه فى هذه المسألة هو أن الاستاذ العقاد تعجل وجامل فأخطأ الصواب ، وأقام أحسن الدليل على أن التعميم فى الاحكام علي الشعوب مزلة للأقدام وسبيل الى الظلم .

أما بعد فان لي فى كتاب الاستاذ انطون الجميل رأيا ان لم يظهر فى هذا العدد فسيظهر فى العدد الذى يليه .

الشلوك

عمالقة السود وأكثر الهمج وحشية

للرحالة الكبير الاستاذ محمد ثابت

الشلوك طائفة من الزنج تحل قسما من منطقة السدود فى أعالى النيل ويحكمهم ملك يسمى (Ret) ولا يزالون يتعقبون ملوكهم الى الجد السادس والعشرين ودولة هذا الـ (Ret أو Mek) كما يلقبونه تمتد غرب النيل بين كاكا وتونجا وشرق النيل من جنوب كودوك الى التوفيقية وعلى ضفتى الـ وباط الاولى ولهم نحو ١٣٠٠ قرية من أكواخ مخروطية من القش والطين يسكنها نحو أربعين ألفا. وهم خاضعون تماما لملكهم الذى يبلغه الجواسيس كل أمر جل أو صغر أولا بأول، ومن أقصى حدود بلاده الى مركزه المختار فى قاشودة على بعد ستة أميال من كودوك. وهم معروفون بالقوام السمهرى وبطول السوق وبروز عضلاتهم، جلدهم لامع براق والمقاتل منهم لا يرى خارج كوخه بدون حربته الطويلة ذات السن العريض، ومعها حربتان قصيرتان (ولا يحملون الاقواس والسهام) وسلاح من خشب كأنه الوتد مدبب الطرف ويستخدمون صحافا بعضها من خشب مستدير والبعض من جلد فرس الماء.

وأخص ما يسترعى النظر شعور الرجال التى يرسلونها تنمو ثم يشكلونها أشكالا غريبة بعد أن تطلى بروث البقر. أما النساء فيحلقن مقدم الجمجمة ويتركن شعرا قصيرا جدا فى مؤخرها فتبدو المرأة كأنها صلعاء. ويتعهد شعر الرجال (حلاق) عماد محترم لديهم يتوارثه عن أجداده وهو فى شهرته ومقامه يلى الرماة والمقاتلة، يأتى الرجل ويجلس أمام كوخ الحلاقة فى الشمس المحرقة ويبدأ الرجل غسل الشعر ونقشه ببول البقر ثم يترك مدة فى الشمس تناهز نصف ساعة وأنت ترى القمل والحشرات تجرى على رقبة الرجل، وأيدى الحلاق والرائحة الكريهة منبعثة منها تعبق فى الجو. وخلال ذلك يعد الحلاق المادة التى سيشكل بها الشعر. فيأتى بإناء من فخار ويخلط به بعض الطين والروث والبول والصمغ ويعجنه ثم يطلى به الشعر فى مهارة فائقة ثم يجفف فى الشمس ويأخذ فى قطع زوائد الشعر بمدية حادة ويدهن جسد الرجل ببول البقر الذى يستخدمونه جميعا رجالا ونساء. بعد ذلك يرش فوق الشعر مسحوقا من حرق روث البقر ممزوجا بالزرى ليأخذ الشعر لونه المطلوب. والعادة أن يتعهد الحلاق شعر رجلين معا لكى يعرف كل نظام شعره اذا ما رأى شعر أخيه ولا تستخدم المرآة عندهم. وأجر هذا العمل شاة أو معزى، ويغلب أن يتعهد الشبان شعرهم هكذا قبل الزواج والحرب وقبل الرقصة الدينية. ولكيلا يفسد نظام الشعر اذا أحس آلام الهوام التى تتزايد فى رأسه كل يوم يضع الحلاق أثناء العملية ابرا من الخشب فتخلف خروقا منها يمكن للرجل أن يحك رأسه بعصى مثلها. وأصعب ما يعانيه الشخص من شعره ليلا اذ ينام على قطعة من خشب يرفعها حاملان وهو لا ينجو من هذا العذاب ولا من عذاب القمل الا اذا مات أحد أفراد العائلة، فعندئذ يجب حلق الرأس وتركها حتى ينمو الشعر ويستأنف تعهده من جديد.

(زينة الشعر عند رجال الشلوك)

ومما يعانيه شبابهم الاختبار الذى يجوزونه كى يحوزوا لقب المقاتلة فى سن الخامسة عشرة فتصحب كل واحد منهم خليلته ويذهب الجميع الى ضفة النهر، وتمسك كل خليلة برأس صاحبها وتميلها نحو النهر وتأخذ فى تشجيعه على أن يحتمل ما سيحل به من ألم. وسرعان ما يجيء طبيب ويشق جبهة الغلام بمدية حادة فلا يجرؤ واحد أن يتأوه والا كان خزيا كبيرا وبعد ذلك تغسل الفتاة الدم فى النهر وتنتهى الحفلة. وكل صبية

هذا الجيل يلقبون باسم حيوان معين يتخذ شعارهم كالاسد أو الافعى وما اليها وكثيرا ماتقطع المدية شريانا فيموت الصبي من كثرة ما يفقده من الدم ، والذى يعيش منهم يصبح مساهما فى بقر القبيلة ويخول له الحق فى الاشتراك فى الرقص العام وينظر اليه الجميع نظرهم الى الرجال وقبيل اجتياز هذا الاختبار يعتبرون اطفالا مفتقرين الي حماية الرجال وينامون فى اكواخ الخدم

والشلوك أهل مياه وأنهار لا عمل لهم سوي الرعى وصيد حيوان السمك فهم يسيرون فى المياه بسرعة مدهشة حتى ولو غاصوا فيها الى أكتافهم . ولايذبحون ماشيتهم قط بل يستمدون منها اللبن . وبعدذلك تستخدم بدل النقود فى المبادلة وهى لديهم مقدسة ويبتاعون من النوبيين شمالهم الفول السوداني وهو غذاء رئيسي عندهم وقلما يزرعون شيئا ، اللهم الا بعض الذرة والطباق فهم كسالى . وكل عائلة تحل كوخين أوثلاثة يحوطها سور فى جانبيه داخلي اصطبل . البيوت نظيفة تحوى ثلاثة أكواخ واحد للزوج وزوجه والثاني للطبخ والثالث للخدم والاولاد . وأحب مشروباتهم المريسة وزوارقهم جذور منقورة من نخيل ، أو أعواد توثق فى شكل مجوف يحمله الرجل اذا شاء . والشلوك اذا صادوا فرس الماء حفظوا لحمه لوقت الحفلات ، واذا صاد أحدهم فرسا بدون مساعدة غيره لبس سوارا من عاج حول ذراعه وكثيرا ما يهاجمهم وحش كالاسد والفهد فيرديه الواحد منهم بحربته وعندئذ يأخذ جلده ليحفظه ويلبسه فى الحفلات ليدل على بسالته

(رقصة فتيات الشلوك)

والشلوك يعيشون فى قري مكتظة عكس أمم البارى والنوير الذين لاتزيد مجموعتهم على عائلة واحدة فالشلوك لهم نظام عائلى وثيق وقانون موحد لذلك قلما تنتشل شيعهم وكثيرا مايستعملون السم الذي يلطخون به سهامهم فى قتل النمر وملكهم لا يذوق طعاما ولا شرابا الا بعد أن يتناول من أحد تابعيه قبلة . أما زينتهم فعقود من خرز ملون تلبس صفوفا بعضها فوق بعض وقد تغطى الرقبة كلها وقسما من الصدر وهى دليل الغنى والجاه ويلبسها الرجال أيضا . واللون الازرق عندهم يشير الحظ السعيد لذلك يلبسه الاطفال فكلما كثر الخرز دل على جاه أبويه وبعض الشبان يلبسون سوارا فى الساعد والعقب ، وهذا يدل على أنهم قتلوا من الحيوان أسداً أو فهدا أو فيلا . والطبخ والزراعة اوالخزف والمريسة وحمل المياه من عمل النساء . أما الرجال فلا يصح لهم أن يقوموا بهذه الاعمال المبينة الا اذ طعنوا فى السن ولعمل المريسة يوضع بعض الذرة فى سلة مع مزيج من مسحوق روث البقر والثرى وكلها توضع فى ماء راكد لمدة أسبوع حتى تتخمر ، ثم تنقل الى جرة من فخار وتغلى فى الماء ويؤخذ السائل العلوي ويبرد ثم يشرب ، وكلما نضبت أضيف الماء اليها وأعيد غليها وهكذا وهذا الخمر قوي مسكر



(منازل الشلوك)

ويخال بعض الناس خطأ أن اللحم أهم غذاء لديهم على أنهم لايأكلون الالحوم السمك وأفراس الماء ، أما لحوم البقر فلاتؤكل الا فى الحفلات . ومن أطعمتهم المحبوبة خليط من مسحوق الفول السوداني والذرة والسمك النيء تطهي فى جرة من فخار ، وكذلك لحم فرس الماء يمزج بالفول السوداني وعشب اسمه



(صيد الفهود)

صفصاف . وتكثر حفلات الرقص بعد شرب المريسة فى الليالى القمرية خصوصا ليلة البدر وكلهم يرقصون والحراب فى أيديهم ، وقد لعب الخمر بلبهم ويقرع القوم طبولهم المزعجة وسط القرية التى تتجمع بيوتها فى شكل دائرة تتوسطها ردهة فسيحة والطبول تقرع من وسطها فى باكورة الصباح اعلانا للناس بأن حفلة الرقص ستقام الليلة وكلما اختلفت قرعات الطبول اختلفت حركات الرقص ودلت على الغرض منه اهو للمطر أم الحرب أم الدين أم الفتيات أم الموت ورقصة الفتيات تبدأ بعد بزوغ القمر مباشرة والغرض منها تعارف الفتيان بالفتيات اذ ترى الفتيان قبل الغروب مرحين انتظارا لملاقاة فتياتهم ويصرفون زهاء الساعة فى تمهيد شعورهم ولبس جلود القطط والاثمار والتحلى بصنوف لا تحصى من الخرز والودع وما اليها وقبيل الغروب تفد الجماهير شبانا وشيبا وتصف جرار المريسة بحجومها الكبيرة وسط الدائرة والى جانبها أطباق من الذرة واللحم نصف المطبوخ ، فاذا ظهر النور بدا المسنون من النساء والرجال فى دائرة ومن داخلها جماهير الشباب من الجنسين ويظلون مرحين يتحادثون حتى يقبل الزعيم ومن خلفه أتباعه يحملون الطبول وأدوات الموسيقى فينصت الجمع ويتداخل الفتيان والفتيات فى صفين ثم تعزف الموسيقى والطبول وبين آن وآخر يرتل الكل أغنية . وما تكاد تنتهى حتى يعلو قرع الطبل ويموج صفوفهم ويبدو الحراب التى تتلألأ فى ضوء القمر . ثم يسرع أحدهم الى الوسط مخترقا صفوف الشابات والشباب وهناك يتمايل ويهاجم كأنه يصارع وحشا ثم يعاد الغناء ثانية ، وبعد ساعة على تلك الحال يشرب الكل المريسة ، ويبدو صف آخر من الراقصين



(الحلاق عند الشلوك)

بعد انسحاب الاول الذي يظل عاكفا على جرار المريسة يرتشف منها ما يشاء ، واخيرا يختف الكل فى الرقص تاركين الحراب ويتقدم كل شاب فى صف الشبان الى فتاة فى صف الفتيات وترفع السواعد بمحاذاة الاكتاف ويقفز كل زوج قفزات منظمة لكن دون أن يلمس الفتى خليلته والفتيات يظهرن دلالهن ويحاولن اسر الرجال واستمالتهم بما يفرق ما تأتيه المرأة الغربية ، فهى مثلا تهز ثدييها بين آن وآخر ثم ترفع عنهما قطعة القماش المهلهلة ثم تعيدها وكثيرا ما يفعل ذلك أمام القاضى فى المحاكم فتؤثر فيه وما يكاد الليل ينتصف حتى تكون المريسة قد أخذت بلبهم فيختلط الحابل بالنابل وبمجرد انسحاب الزعماء والمتقدمين فى السن تأتى الشبان والشابات بما لا يتصوره العقل بل وبما يستنكره الخلق الفاضل القويم

الزواج : ولا تتزوج الفتاة قبل الخامسة عشرة وبفضل رقصة الفتيات يمكنها أن تتعرف بالكثير من الفتيان ، والزوجة يمكن شراؤها بالقطعان . والرجل شراء ما استطاع من الزوجات ، لأن ذلك دليل الجاه والغنى ، وقبل أن تتم صفقة الشراء هذه يجب أن توافق هى على هذا الزوج وفى العادة تكون قد رغبت فيه ابان حفلات الرقص ، وهى تحب أن يكون غنيا بقطعانه ومزارعه ، والعجيب أن الفتاة تؤثر الزوج الذى يستطيع بماله أن يشترى زوجات كثيرات غيرها . وقبل اتمام ازواج تقدم الهدايا (الشبكة) كعشر من المعزى وثلاث من الحراب وعشرين خطافا للصيد (سنارة) وما اليها وخلال تلك الفترة يبدأ التعارف بينهما — نظام شبيه بنظام الغرب — ففى حفلة الرقص يقود الأخ



(زينة الشعر عند نساء الشلوك)

أخته الى حلقة الرقص والخجل يبدو على وجهها وهناك يسألها زعيم القبيلة أن تعترف بجميع علاقات الحب التي حصلت مع فتيان آخرين من قبل وهي تخشى الا تقول الصدق لأن الاخبار كلها تصل الزعيم أولا بأول . وبعد تلك المداولات بين الزعماء والعروس تقرع الطبول فينصت الجميع وهنا تكرر الفتاة ذكر أسماء الفتيان الذين أحبوها من قبل فيحضر كل منهم الى وسط الدائرة ويحكم عليه بغرامة من الماشية والاغنام ومتي جمعت تلك القطعان قدمت كلها مهراً للزوج أما الفتاة فلا عقاب عليها متي صدقت في الاعتراف ومتى أقر الزعماء ذلك ولا عار على الفريقين من ذلك فالاعتراف من جانب الفتاة والغرامة من جانب الفتي عقاب كاف وترضية حسنة . والظاهر أن هذا التصرف لايرمي الى منع الفساد الخلقي بقدر ما يرمي الى تزويد الزوجية بالمال والمتفرجين بالطعام والشراب والرقص

وعند ميلاد غلام تقدم الهدايا للأب من قطعان يربو عددها بالتوالد حتى اذا ما أضحي الطفل رجلا قدمت له بعد أن يجوز (حفلة الرجل) ، واذا مات أحدهم دفت الجثة أمام الكوخ الذى كان يقطنه ويلف الجسم في آخر ما كان لديه من ثياب ان وجدت والى جانبها الاسلحة وأدوات الطبخ وكل ما يلزم للحياة الاخرى ما عدا أدوات الزينة . والجسم يمد في القبر على ظهره وتوضع تحت الرأس وسادة من خشب للرجال ومن قش للنساء والاطفال واذا مات الزعيم دفن داخل باب كوخه وأغلق سنة كاملة بعدها يهدم وعند دفن الميت تقام حفلة (رقص الموتى) فيجتمع الأهل وقد لطخوا جسومهم برماد من حرق روث البقر وبولول الجمع وفق قرعات الطبول البطيئة ويمثل الراقصون مايدل على شجاعة المتوفى وفضله ويقدم الناس لأهله الطعام والشراب وتستهلك مقادير عظيمة من المريسة وقبل شروق شمس اليوم التالى ينسي الحزن بتاتا

وفى رقصة الموت يمثلون موقعة يؤخذ فيها النساء والاطفال والماشية أسري وهذه الرقصة تقدم في أى وقت من النهار بمجرد سماع القوم لقرع الطبول نداء لها فيتزين كل بما لديه من أدوات البسالة من ريش وجلود وحراب وما اليها ويتقدم المقاتلون ذهابا وجيئة ويضربون الارض بارجلهم وحرابهم التى كثيرا ما تنثني أو تتكسر ثم يهاجمون الاكواخ التي فيها أسرارهم ويسوقونهم فيها بشراسة زائدة وسط تهليل يصم الآذان مسرعين نحو الزعيم والدماء تسيل من الجروح التى تخدش بها وجوههم وجسومهم ثم يتقدم الطبيب بعد فيضمدها بعصير بعض الاعشاب

واذا قام نزاع بين قبيلتين أدى الى قتال عنيف ولاتتنازل احداهما عن الاخذ بالثأر الا اذا تساوى عدد الضحايا من الفريقين ولا يمكن لأية قوة مقاومتهم لأنهم يلجأون الى صيد الناس بسهامهم المسمومة

تاريخهم : ويرجح بعض الكاشفين انهم وفدوا من منطقة البحيرات ولم يحلوا مكانهم هذا الا منذ أربعة قرون وفى سنة ١٥٠٤ غزوا سنار لكن غزاهم البقارة سنة ١٨٦١ وفى ١٨٧٤ ثاروا على الحكومة المصرية فى السودان وفى ١٨٩٠ خلال ثورة المهدى ثاروا ضد تجار الرقيق من العرب والدراويش لكنهم هزموا وسيق عدد كبير منهم الى أم درمان ولهذا السبب نجدهم يبغضون العرب، ويظهر انهم يمتون بصلة الى الدنكا وبعض قبائل البحيرات مثل (كافروندو) لتقارب لغاتهم وبعض عاداتهم

الدين : ولهم آله اسمه (فوك Fok) قادر ومسيطر خالق كل شيء الا أنهم خاضعون لما يسمونه نيكوانج (Mek) وهو خليط من الوثنية وعادة الاجداد والارواح ، فهم يرون أن أول جد لهم هو نيكوانج الذى يعمل وسيطا بينهم وبين الاله الاعظم الذى لا يدركه أحد وهو (فوك) فهم يقولون في وقت الضيق (أن فوك قد غضب علينا) ويصلون لنيكوانج للشفاعة وروح هذا تحل كل ملوكهم Mek ويرون أن روح الموتى تزورهم في المنام وتؤثر على حياة الاطفال ، وهم يتخيلون الله دوامة هوائية تتناهم كثيرا و تحمل الرماد عقب احراق العشب فى عمد سوداء عالية ، ويقولون بأن الله أسود اللون لأنه لايرى ويسكن الظلام ، واذا مات الانسان عاد الى ربه وعند الصلاة يقول الشلوك : يا آلهى اتركنا وحدنا تنجو فأنت عظيم ، لا يمكن لاحد أن يتكلم معك انت الله ومن تقتل منا يموت . أنت مقر روحنا فاتركنا ننجو والباقون يستمعون وهم منصتون وحرابهم فى أيديهم بعضهم و واقف والبعض راكع . ولتقريب فكرة الآلهة من الناس يفترضون له وكيلا شبيها بالانسان هو نيكوانج . يتوسلون اليه قائلين : نيكوانج قد أعطاك الله الارض فاحكم الشلوك وارج لنا ربك يجعل البقرة التى سنذبحها قربانا مقبولا لديه ثم يقتلون البقرة ويغسلون دم الحربة بالماء ويخلطون هذا الماء بالروث الذى يخرجونه من أحشائها ويرشونه على الناس جميعا . ورأيهم في الخلق يتلخص في ان الله هو الخالق خلق طبقتين مسطحتين : العليا وهى السماء والسفلى هى الارض ثم خلق النبات والشجر . وأول حيوان ظهر الجاموس ثم الانسان وكلم الله الجاموسة قائلا . تعالى غدا أعطك حربة فسمع الانسان ذلك وذهب خلسة لما خيم الظلام فلم يره الله فتقدم وهو يمشى على أربع وينفر كأنه الجاموس فقال الله من هذا؟ فأجاب أنا من له قرون متجهة الى الوراء فجزع الله وأعطاه الحربة ولما جاءت الجاموسة تخور قال الله ألست أنت التى أخذت السلاح مني؟ قالت لا بل الانسان فأعطاها قرونه وأهاجها على الانسان أني لاقته .

ولما خلق الانسان كان أحمر اللون لأنه شكل من طين النهر ثم ذهب الى التربة السوداء وخلق الجنس الاسود ولما انتهي من خلقه فرك يديه فسقط الطين منها فتاتا هو القمل الذى التصق بشعر الانسان وضايقه ولذلك اخترع له الله الموسى للتخلص منه . وفريق منهم يرى ان الله أمر زوجته فولدت توأمين أسود وأبيض وكانت تحب الاسود وتبغض الابيض وأمر الله بتربيتهما . وحدث مرة أن مد الاب رجله وأمر أن يلعقها اولداه فخضع الابيض لانه عبد وأبي الاسود فأحب الله لذلك الابيض وحاباه وقال لزوجه ان ابنى هو هذا

وسأملكه على الاسود يبيع فيه ويشترى وسأمده بالاسلحة التى تسوده على كل شيء.

والطبقة الاستقراطية تشمل (Ret أو Mek) وأولاده نيارت (Nia ret) وأحفاده نى آريت (Nia-ret) وأحفاد أحفاده كوانى آريت (Kwaniaret) وهؤلاء فقط هم وارثو الملك أما العائلات المتفرعة عن الملوك الاقدمين فتسمى أورورو (Ororo) ولهم نفوذ عظيم

الى هؤلاء طبقة قوية Kujurs وهم أطباء السحر تتمثل فيهم قوة القسس والاطباء وام نيكوانج يسمي كيى يا (Kieya) تتمثل فى التمساح ولذلك قدسوه وفى كل قرية هيكل لنيكوانج وهو كوخ باسق حوله كوخان عاليان يزين أعلاها حراب بيض النعام وذلك لان نيكوانج وفد من الصحراء يمتطى نعامة. واذا مات الملك تزوج صغار زوجاته من بعض أقربائه أما الطاعنات فى السن فيصبحن خفر المعابد وبنات الزعماء هن بنات نيكوانج وعند زواجهن تقدم الضحايا لزوجة نيكوانج الكامنة فى بطن التمساح فيؤخذ عنز ويذبح على حافة نهر. وعجيب أن تفد التماسيح لا كل الدم أما اللحم فيرسل لحارسات المعابد وهم اذا رأوا دوامة ترابية سجدوا لها لظنهم أن الله (فوك) يسير مختبئا فيها وهذه العواصف تكثر فى شهور الجفاف خصوصا بعد اشتعال النار الذى يكثر عندئذ فى العشب والغابات

واذا تخلف المطر اقاموا رقصته لمدة ثلاث ليال أو أربع حول معبد نيكوانج عند الغروب وهذه هى الرقصة الوحيدة التى يلبسون لها الاردية والعادة أن ينتظر الزعيم (كوجور) بعد الجفاف متحينا فرصة يرجح نزول المطر فيها ثم يقرع الطبول للرقص ويصلون وهم وقوف ووجوههم الى السماء فى غير حراك ساعات طويلة وكلهم ايمان بأن المطر سينزل سراعا وفى داخل المعابد ترى مذبحا للضحايا من الغنم يقام من الخشب وترى فوقه بعض الطعام والمريسة يقدمها كل من أراد التقرب من الوسيط نيكوانج

حفلة تتويج الملك : والملك (Mek) ينتخبه زعماء القبيلة من افراد العائلة المالكة وفى يوم التتويج يفد من فاشوده الى الضفة الجنوبية لنهرهم المقدس تحوطه جماعة الحرس بحرابهم ويجتمع أهل القبائل بجيوشهم سائرين من القرى نحو اسبوعين على الاقدام ويجب الا يتخلف احد الزعماء ويلبس الملك جلبابا مخططا وحزاما مزدوج اللون الازرق والاحمر وطربوشا أحمر قانيا وهو شعار الملكيه ثم يركب حمارا ويظهر على ضفة النهر يحوطه الجند من العمالقة وعليهم الجلباب الاحمر فيحيي الجماهير الملك بحرابهم المرفوعة حتى يجلس على جلد نمر ويقدم أهل كاكا اقصى بلاد الشلوك شمالا عجلا أبيض ويقدم أهل تونجا اقصى بلادهم جنوبا فتاة صغيرة. والبلاد يقسمها النهر المعدنى قسمين جار Garr، ولواك Luak ولكل منها زعيم وتحت هذين زعماء القرى فيتقدم أهل الشمال بالثور الى النهر فى مواجهة الملك ويهجم زعيمهم فيخترق جسم الثور بحربته ثم تتبعه سهام الناس من كل جانب فيسقط الثور ويسيل الدم الى النهر ثم يتقدم زعيم الجنوب الى الملك وبيده الفتاة عارية فيتسلمها الملك ويصيح الكل قائلين (أيوه! أيوه!) وعندئذ يمكن لاهل الشمال ان يتخطوا النهر الى الضفة الجنوبية ويبدأ التتويج بأن يغسل الملك بالماء الساخن ثم بالماء البارد لكيلا تؤذيه تقلبات الجو حرا وبردا ثم يعامل بخشونة وقسوة من الجميع وعليه ان يطيع ويخضع لكي يتعلم التواضع ثم يركع له الجميع اجلالا لانه ابن نيكوانج ثم يلبسونه خفا فى قدميه من جلد فرس الماء الغفل الخشن ليمشى به على مضض فيفهم معنى الفقر والتقشف ثم يقدم له الخدم بعض لحم الغزال وفرس الماء اشارة الى توافر اللحم والقناعة فى أكله ثم تقدم المريسة بمقادير كبيرة لكن عليه الا يسرف فى شربها ليدلهم على انه قنوع ثم يجرى اليه ثلاثة شبان بحرابهم تصوب الى صدورهم فيدفعها الملك بيده الى تلك الصدور حتى تدمى دلالة على انه سيحكم حكما صارما لكنه فى عدل. ورحمة وأخيرا يقف الملك ويخاطب الزعماء ثم يتقدم منثنيا فيركع الجميع اجلالا — وهذا ما يفعله القوم دائما كلما رأوا الملك — وهو يتكلم فى تؤدة ووقار فيجيب القوم بصيحاتهم (أيوه! أيوه!) كلما فاه بعبارة واحدة

فى التليفون

بين بتاح فى عهد احمس بطل استقلال مصر

وعبد الجليل أحمد طوعى القرش

— ألو! ألو! من أنت؟ — أنا بتاح ومن أنت؟

— أنا عبد الجليل

— فى أى مدينة تكون وما جنسيتك.

— أنا فى البدرشين، أنا حيث تمثال رمسيس المعظم ملك مصر الفاتح، أنا فى منف... العاصمة العظيمة التى امتلأت فى عهدكم بالحكماء والقضاة ورجال العلم والفن فأين أنت؟

— أنا فى نفس المدينة لكن يخيل الى أن زمنا ما يفصلنا. انه يشبه الجبال العالية والصحارى المديدة الفسيحة. فأية أعجوبة هذه التى جعلت الارواح تعبر الازمان. لقد أثار اعجابنا عجلاتنا التى تطوى الارض طياً ولكن هاهو ذا شيء عجيب آخر يطوى الزمن لكن ماذا تفعل فى منف.

— أنا أعمل عملا جليلا. لو استطعت أن تمد يدك وراء الأجيال الى يدى لشعرت بالدم يجري فيها حاراً ملتهباً ان الفرح الذى يملأ نفسى لتتضاءل أمامه كنوز العالم ومفاخره

— ان الذى تقوله عجيب . . . فأنت تصف ما أحس به تماما . فانى انتفض سعادة وانى لاشعر أن الدنيا تصغر فى عينى أمام هـذا المبدأ العظيم الذى تخرج مصر لتحققه . فهل أنتم تفعلون ما فعلناه نحن منذ قرون . ماذا تفعل فى منف ؟

— انى هنا اجمع القرش — تجمعون القرش ؟ ماذا تعنى

— أعنى أننا نجمع من كل مصرى شيئا يتبرع به . شيئا نافها من ثروته . فاذا جمعنا هذه الثروات الضئيلة جمعنا ثروة ضخمة — وماذا تفعلون بهذه الثروة الضخمة ؟ لست أفهمك فلعل الاتصال الذي بينى وبينك قد اضطرب ، فان عقلى لا يستطيع أن يدرك من الذى يجمع هـذه الثروات الصغيرة ولمن يجمعها — ثم لماذا . آه ، لعلكم تخشون المجاعة فتجمعون اليوم ما يقيكم شرها غداً وليس هـذا شيئا عجيبا . لا ياصديقي لسنا نجمع هذه الثروات الصغيرة لشيء مما يجرى فى بالك . بل نجمعها لنشيد بها مصانع تخرج لنا ملابس نلبسها ومآ كل نأ كلها ، وأثاثاً نؤثث به بيوتنا .

ولـكن من الذى يقوم بهذا الجمع ؟ — الشعب ، الشبان الذين أنا احدهم . فأنا أترك العاصمة حيث الراحة والترف والهدوء . لأجوس خلال منف التى أصبحت قرية صغيرة فيصيبنى التعب ، والتى احيانا الاعراض ، وأرى غالبا الفقر ، فتـذهب نفسي حسرات فى الحالين ومع ذلك لست أيأس ولا اتقهقر

— انه احساس الامة ، بدأ غامضاً ، ثم اتضح شعوراثم استحال فكرة ثم تجسد عملا .

— لابدأن تكونوا شعبا ناضجاً جدا . ان القوة التى فيكم هى القوة التى خلقنا بها الفنون وأوجدنا العـلم ولـكن فى نفسى سؤالا يضايقنى فدعنى أسألك اياه ! ماذا كنتم تلبسون قبل هذه المصانع التى تريدون تشييدها . هل كنتم عراة . ثم ماذا كنتم تأكلون . هل كنتم فى صوم ؟ — لا ، لقد كنا نشترى ثيابنا من غيرنا من الدول كذلك كنا نبتاع طعامنا . هل سمعت صرختى التى دوت . لقد أحسست بمثل مروق السهم فى جسمى حين سمعتك تفوه بهذه الحقيقة المريرة . لقد شعرت بالألم ، حين عرفت أن احفادنا يعيشون متسولين لايعرفون كيف يحيكون ثوبهم أو يصنعون طعامهم . . أنتم أهون من العبيد ماذا كنتم تفعلون لومنعوا عنكم الطعام ، وحجزوا عنكم الثياب . — اطمئن ، اطمئن يا أخى . فمصر اليوم من أولها الى آخرها فى ثورة على هذا الحال الاسود . وهو ينقشع وتبدو من بعد اضواء فجر جميل . فها أنا ذا قلت لك اننا نخرج فتؤسس مصانع تغسل عن كرامتنا هذه الاهانة التى جعلتك تصرخ . ومصر أنت تعرفها تستطيع ان تنتج لابنائها كل شىء . الثياب التى يلبسون ، والطعام الذى يأكلون . ولـكن ابناء أوروبا القارة الناجرة التى لم تعرفوها ، عودونا أطعمة خاصة ، والوانا من الثياب بعينها ، فأصبحنا لا نستطيع ان نعيش بدونها فاستوردناها منهم . ثم خلقوا لنا صنوفا من الزينة فاشتريناها منهم ودفعنا ثمنها غاليا . وبذلك تسربت أموالنا الى جيوبهم .

***

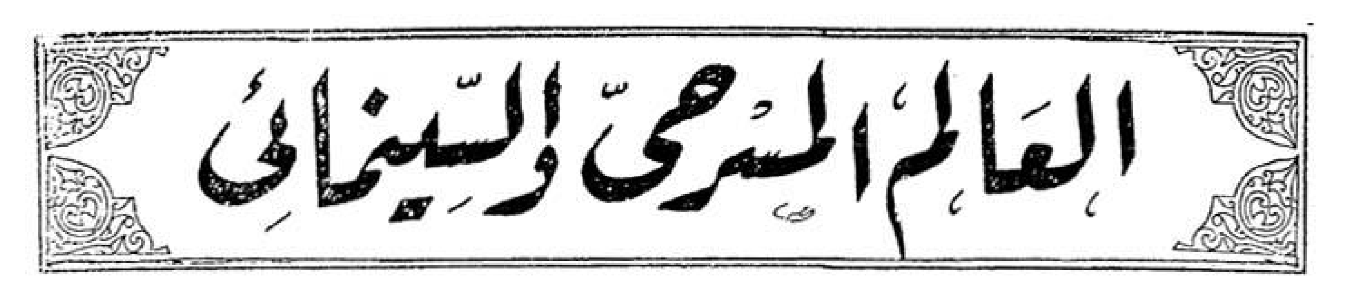
ان أشد أنواع الاستعباد استعباد الروح والفكرة . ففى بلادنا اليوم أعداء ولـكنا لا نحس بهم لان معتقداتنا ونظام حياتنا وأسلوب تفكيرنا ، لم يصلوا اليها ولم يؤثروا عليها . فنحن أحرار ولكنهم هم أنفسهم المستعبدون فقد جاءوا الى مصر فغيرت عاداتهم وأخلاقهم وجعلتهم أمة جديدة — لعلك انت فى منف لتحارب هؤلاء الاعداء — نعم ، أنا مع مئات الالوف من أبناء مصر كل منا فى صدره قلب لو وضعت يدك عليه لأحسست بما لم يهتز ويعج ، فى أيدينا سهامنا وأقواسنا وهى تشتعل حرارة هى حرارة هذه القلوب . ثم ترتفع من حناجرنا أهازيج هى أهازيج الفوز والانتصار . وأمامنا قائد هو أحمس تحيطه الافئدة وتجرى وراءه الارواح ، وتتابعه العيون . لايقول شيئا الا فعلناه ولا يشير بيده الا أسرع اليه الشباب كله فى جسمه جروح لا تعد وفى جبينه شج هو خير من تاج . سنسير اليوم صفوفا صفوفا تحجب كثرتها قرص الشمس ، وتسير أقدامنا تطرق الارض طرقة متسقة موسيقية تطمئن لها الروح فتنشط لها النفس . ثم تتقدمنا العجلات الحربية فيها الشبان الذين كشفت ثيابهم عن أذرعهم القوية الجبارة ، وصدورهم التى ترتفع وتنخفض انتظارا للمعركة التى يرتفع فيها اسم مصر ، انى سعيد يا أخى ، انى سعيد ، فدعنى أغنى وأرقص . فان ساعة الفوز قادمة — ولـكن ألا تفكر فى انك قد تموت !

— أموت ! ما أبدع وما أروع ! وهل ثمة ميتة أعز من هذه الميتة ؟ لقد مات في معركة أمس صديق لى فلما اقتربت منه أساعده وجدت شفتيه تضطربان وعليهما بسمة . ثم همس فى أذنى .. ما أسعدنى ليهبك الله شرف هذا الموت ! »

ولقد أصاب سهم جنب ابن عمى ، فذاق عذابا لو نال الاهرام لذابت ، ولـكنه كان يغمض عينه ويضغط على شفتيه ، وعلا الصفرة صفحة وجهه وهو لا يكاد يئن . انه يستعذب الألم ، انه يستطيب العذاب ، ما دام ذلك من أجل هذا الوطن الذي نعيش فيه . ان مصر لتهب القوة والجلد والصبر . انها لتخلق من الجبناء الضعفاء مغامرين اقوياء . دعنى ياصديقى أغنى فان ساعة المعركة قادمة ، سنمضى مثلكم فى جيوشنا السلمية : صفوف منظمة ، أساليب محكمة وايمان يملأ القلب . كل سنة نشيد مصنعا تصنع فيه الـكرامة المصرية المتيدة سليمة من جديد . وفى كل لحظة نبشر بعصر التى وهبت للدنيا الفن والحكمة ، وعلمتها الزراعة والصناعة ورفعت للعالم مشعلا لم يرتفع له منذ آلاف السنين

سيد فهمى رضوان

سرير رقم ٣٣ المستشفى الاسرائيلى ١٥ يناير سنة ٩٣٣



للاستاذ محمد توفيق يونس

خاتمة الرواية الحديثة

أصاب نقدى على رواية (بنات اليوم) شيء من البتر أثناء الطبع جعل قولى فى خاتمة الرواية وحلها غير مفهوم فأحببت أن أوضح هذه الفكرة فأقول :

قام على هذا الموضوع خلاف شديد بين انصار المذهبين الرومانتيكى والواقعى . فهؤلاء يأخذون على أولئك ختامهم الروائى الذى ينتهى فى المآسى بالذبح العام والقتل الشامل . وربما ادخلوا بعض أشخاص الرواية فى هذه الخاتمة لأنها أسهل طريق للتخلص منهم . أما فى الكوميديات فغالباً ما يسدل الستار على مكافآت عظيمة ، وجوائز سنية ، وعيش رغيد يبعد عن الحقيقة كل البعد .

رأى الواقعيون أن المسرح وهو قطعة من الحياة يجب ألا ينفصل عنها . فليس من الفن والواقع فى شيء أن يعامل المؤلف القطعة التى اختارها من الحياة كأنها كائن قائم بنفسه . لذلك كان من الواجب عليه ، وهو يسير بروايته الى الغاية ، أن يترك فى نفوس جمهوره أثراً بان الدنيا لا تزال مستمرة الحركة فيخرجون وهم يشعرون — بعد أن كوفئت الفضائل ، وعوقبت الرذائل ، وحققت الرغائب — أن أشخاص الرواية لم يزيدوا ولم يقلوا عن كونهم آدميين سيجدون ولا شك أفراحا جديدة وأحزانا أخرى مكتوبة لهم فى سجل القدر . أما فى الروايات القديمة فقد كان المؤلف يجعل النهايات حاجزا بين الحاضر والمستقبل كأنما العالم بعد ختام روايته قد وصل الى نهايته .

الخاتمة على مسرح برينتانيا

رفع الستار وبدأت الرواية . الحوار شائق لذيذ ، والعمل محكم جميل ، والتحليل قوى دقيق ، ولكننا كنا نشعر كلما تقدمت الرواية ونما العمل بجو أجنبى ، فالحادث غريب ، والبيئة غريبة ، والأشخاص غير مصريين وان كان الكاتب (الاستاذ طاهر حقى) قد أعارهم اسماءنا وألبسهم ثيابنا . فليست الرواية مصرية فى الواقع ؛ واذا كان الكاتب قد اقتبسها فكان ينبغى أن يعرضها فى صيغة تلائم الذوق المصرى ، ويعنى فيها باللون المحلى حتى لا يجد المشاهد نفسه فى جو لا يحسه ولا يألفه ولا يتأثر به ، وأمام أشخاص لا تدنيه بهم معرفة ولا تربطه بأحدهم صلة . واذا كان التوفيق بين فكرة الرواية الأصلية والصبغة المحلية متعذرا فكان أجدر به ترجمة الرواية كما هى حتى لا يسيء الاقتباس ، ويخطيء المغزى ، ويخدع الجمهور

أما التمثيل فلم يكن فى مجموعه صحيحا متسقا . ونجاح الرواية فى الواقع يرجع الى بطلتها السيدة فاطمة رشدى ، فقد لبست دورها ببراعة وحذق وكانت فى موقفها فى ختام الفصل الثانى جديرة بالاعجاب حقا .

الرواية السينمائية المصرية

شهدت القاهرة هذا الأسبوع محاولتين جديدتين فى سبيل ايجاد الرواية السينمائية المصرية الصحيحة ، (الزواج) للسيدة فاطمة رشدى ، ثم « كفرى عن خطيئتك » للسيدة عزيزه أمير وهى أول من وضع الحجر التاريخى للسينما المصرية . وهذه حركة نقابلها بالغبطة ، وإن كنا نلاحظ على رواياتنا السينمائية بوجه عام عدم توفر الأصول الفنية فيها ، وكثرة ما بها من نقائص وعيوب . ولن تقوم الرواية السينمائية المصرية وتنهض الا على أساس من المعرفة الصحيحة والدرس الطويل . ومن الضرورى أن يعهد بها الى فنيين زاولوا السينما وأدركوا دقائقها ، وفهموا حقائقها ، وعرفوا أسرارها . واذا كانت جهود الافراد تعجز عن القيام بما يتطلبه هذا الاستعداد من نفقات ، فلدينا شركة قائمة هى شركة مصر للتمثيل والسينما تستطيع أن تسد هذا الخلل وتقضى هذه الحاجة . ولنا وطيد الأمل أن تدخل الميدان وتساهم فى وضع أساس الرواية السينمائية المصرية فتستقدم الخبيرين نسترشد بفنهم ونهتدى بتجاريبهم حتى ينتظم العمل من وجوهه الفنية جميعا .

ولقد رأينا ما كان لاشتراك المسيو روبير بدروز المخرج بشركة جومون فى رواية « كفرى عن خطيئتك » من أثر جميل وتقدم محسوس فخرجت الرواية واضحة متسقة منتظمة . ولا يسعنا نحن الا أن نرحب بهذه الخطوة الحميدة وأن نقابل بالتشجيع ونذكر بالخير مجهود عزيزه أمير والسادة احمد الشريعى وتوفيق المردنلي ومحمد صلاح الدين وزكى رستم